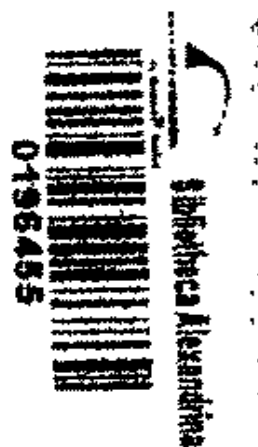


خالد محمد خالد

انه الانسان

مكتبة الطبع والنشر دار الكتب العلمية
الطبعة الاولى ١٩٨٥
توزيع الجمهورية بدمشق بالفاكس



خالد محمد خالد

إنَّه الْإِنْسَانُ

« أَتَى مِنَ الْمَعْرِفَةِ »
« التَّصَمُّيمُ عَلَى أَنْ نَعْرِفَ »

ملثم الطبع والنشر دار الكتب الجديدة
لصاحبها توفيق عفيفي عامر
شارع الجمهورية بالقاهرة

مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى الناسِ كافة . . .

في هذا الكتاب

سورة

الفصل الأول : الإنسان عَبر نفسه	٥
الفصل الثاني : الإنسان مادة حضارته	٥٣
الفصل الثالث : الإنسان سيد فكره	٨٣
الفصل الرابع : التحديد ، والاختيار	١٣٩
وبعد :	١٥٩

مقدمة

في صحبة تماؤل عظيم بمستقبل الإنسان ، كتبت هذا الكتاب ..
وفي صحبة هذا التماؤل ، أعينى -- دوماً -- وأحياناً

وساحبكم من الذين يربطهم بالإنسان ولائاً غير مجذوذ ،
ولا حدود ..

وكل ما في الناس من ضعف ، لا يسرفنى عن رؤية الإنسان
السكن داخل ذواتهم ، وصفوفهم .. والسكاح إلى الكمال كدحاً
فملافيه .. ١

سبح أنى -- أحياناً -- أبتئس بما يفعلون ، وبما أفعل ، ويتراءى
لى مشهد الفلاسوف الأغريق « ديوجينز » حين صاح من فوق هضبة
عالية : « أيها الناس » .. فلما سارعوا إليه هز رأسه أسفاً ، وقال :
« لم أنادكم .. إنما أنادى الناس » .. ١١

لكن الإنسان لا يثبت أن يظهر ، متربها على عرشه القويم فوق
كل هذه القوضى .. حاملاً مشعله المضيء وسط كل هذا الظلام ؛
فتذهب من فورها تلك الحشرات السكاذبة . وتطير غواشى السكابة
والياس أمام عظمته السامقة ..

وهذا الكتاب ليس قسيمة تحمكي أبحاد الإنسان وتردد
مفاخره .

إنما هو محاولة في سبيل كشفه واجتلائه
ذلك أن الكثير من مشاكل البشرية ، مرثه تقطع الأسباب
بينها وبين الإنسان . ، وقمودها عن العمل الدائب البار من أجل
اكتشافه ، واكتشاف مشيئته

لعلنا أقامت البشرية جسورها فوق هاوية ..

ولعلنا أسلمت أمورها للبغضاء ، وللحفظ الغاشيات .
وكثيراً ما كانت — ولا تزال — تبدو كجيش زاحف تاه عن فائده ،
وحيل بينه وبين معرفة خطته الكئلي ، واتجاهه السديد . ، فتعبد ،
وتشتت ، واحتواه الضياع

ولكن لحسن الحظ ، أنها أدركت أخيراً ، أنها لكي تغض
أقدامها الراسخة فوق صراط قويم .. ولكي تكتشف حقائق حياتها
في زمن وجيز ، وبجهد يسير .. ولكي تظفر بكل أغراض وجودها
المعظم . ؛ فلا بد لها أن تعود بتفكيرها جيمه إلى الإنسان ..

ولقد فعلت .. وكأني من رائد ، وفيلسوف ؛ ومُعَلم أيلي في هذه
السبيل أطيب البلاء ..

بيد أن الجهود التي يتطلبها هذا العمل الجليل ، لا تزال تطلب

المزيد . ومن كُتُب ، فتبغات الذين يستطيعون الإسهام والمشاركة ،
تناديهم وتهيب بهم كي ينهضوا ، ويتقدموا ..

وهذا الكتاب ، جهد متواضع ، يتقدم على استحياء ليأخذ مكانه
بين الجهود الكبار ، العاملة من أجل اكتشاف الإنسان .. اكتشاف
حقيقته .. واكتشاف مشيئته .. واكتشاف القرص الواجب
توفرها له كي يبلغ كماله اليسور ، ويدرك مجده القادم ..

وهو ، أعني الكتاب ، يتبع الإنسان — عبر نفسه — ،
و — خلال حضارته — ، ويبصره في — آفاق فكره — ، وفي
— اختياره وحرية — ..

ولم أسأل نفسي قبل البدء في المحاولة ، إن كانت الظروف مُهيأة
بحيث أزاولها على النحو الذي أريد ، أم لا .. إذ كان حسبي أن ألبى
نداء تبغات فكرية أمينة ، وأقول كلمات أحسبها لازمة ، ومُجدية ..

لقد سُئل « كونفشيوس » من أحد تلامذته هذا السؤال :
— كيف أؤدي واجبي تجاه الأرواح .. ؟ ؟
فأجابه « كونفشيوس » :

— هندا ما تتعلم كيف تؤديه تجاه الأحياء .. !!
وهكذا نحن .. لن نستطيع أداء واجباتنا تجاه كل شيء ، حتى
نؤدى — أولاً — واجبنا تجاه الإنسان .
وعلىنا أن ندرك هذا جيداً .. فعلى إدراكه يتوقف كل ما نرجو .
نحن البشر ، من تقدم وارتقاء ..
ولعلكم الآن تتساءلون : وما هذا الإنسان . ؟؟
وهنا أستودعكم الله ؛ لمخلّيا بينكم وبين الكتاب ؟
فأله

الإنسان عَبرَ نَفْسِهِ

لهذا خلقنا . .

ومنذ أعطينا هذه الأرض ، وهذا الوجود ، وهذه الحياة . . وثمة
من الأعماق البعيدة نداء لا يفتأ يتردد ويهيب : أن واصلوا السير دوما .
وارفعوا مراسيكم وأبحروا إلى الغرض العظيم . .
الغرض العظيم . . ؟؟ وماذا يكون . . ؟؟

اطلما تبدى لنا في نماذج شتى . . في الأرض تارة ، وأخرى في
السماء . . خارجاً عنا مرة ، وكأنا فينا مرة أخرى . .
وفي كل هذه الاعتمالات ، كان القاق العظيم الذكي يدفع خطانا ،
وُشير فينا قوى الاستشراف إنارة علية واعية . .
سيرنا مع القدر ، ومع الحظ ، ومع الذكاء . .
زاملنا اليأس ، وزاملنا الرجا . .
ذقنا مرارة الإخفاق ، وحلاوة الظفر . .
عشنا على السفوح ، وتذرينا القمم . .
واجهنا الفجائع ، وعانقنا المباهج ، وسرنا على الشوك خفاة ،
وعانينا العقيق غرارة . .

وفي كل هذا وذاك . كانت راية الإقدام تخفق عالية ، عالية . . معلنة
وجود قافلة تحتدم شوقاً . وتتضرّم رغبة . وتتفجّر عناء ، وذكاء ،
وعزماً . . .

وكان أعظم ما فينا ، وأروع خصائصنا ، الشوق . .
يا لها من كلمة ممتلئة بأسلة — هذه التي نلقبها اليوم دون أن نأق
لها بالآ . . . ١١

أجل . . كان الشوق رائدنا ، وحافزنا . . ومن كل ظفر عظيم
يُتاح لنا تحقيقه ، كان ينبعث شوق جديد لظفر قادم ، وتمرونا غبطة
جديدة بمسئوليات تالية . .

ولكن ، إلام كان هذا الشوق العظيم . . ؟
لم نكن ندري ، وإن كُنَّا نُحِسُّ . .
لم نكن نعلم ، وإن كُنَّا نَحْدِسُ . .
حتى انبثق ذات يوم من موكبنا الصاعد عمالقة تتربى . . فيهم
الأنبياء الذين يُقَلَّبون وجوههم في السماء فتلهمهم الهدى والفرقان . .
وفيهم الفلاسفة الذين يتساءلون : كيف . . ؟ ، ولماذا . . ؟
وفيهم الفنانون الذين تُزجى أناملهم الرقيقة سر الطبيعة وذكاءها .
ومنهم العلماء الذين أخرجوا خبء المجهول ، وأسروا إليهم الكون
بقوانينه . .

وتنشأنا من العجب ما تنشئ . .
لم يكن عجبنا ، كيف وُجد هؤلاء . . ؟ وإنما كان :
كيف وُجدوا فينا . . كيف خرجوا من بين صفوفنا . .

كيف خلُقوا من طينتنا ؟؟

إنهم معنا على ذات الأرض التي نعيش جميعاً في مناكبها .. وإنهم
ليحملون مثلنا تحمل ميراث جميع الأسلاف الذين سبقونا . فكيف
تفوّقوا ؟ . وكيف تألّفوا ؟ . وكيف اتخذوا طريقهم إلى السماء
صاعدين ؟؟

وكان هذا الحسُّ ، نقطة انطلاق عارم . وبدأنا ندرك الغرض العظيم
الذي خلّقنا لنبلّغهُ . وعرفنا الشيء الذي يسوقنا الشوق إلى لقاءه ..

ولم يكن سوى الإنسان ! ! ! !

ومنذ ذلك اليوم — فيما أحسب — بلغنا رُشدنا ، وبدأنا نعرف
كل شيء ، حين بدأنا نعرف أنفسنا ودورنا ..

لقد كان ميلاداً جديداً لنا — نحن البشر — حين أدركنا أن
الأرض التي نعيش فوقها ، تعمل ، ويعمل كل شيء فيها تحت زعامة
الإنسان ..

هذا الإنسان الذي هو خليفة الله ..

القابض بيديه الماهرتين على شئون عالمه ..

هذا المتفوق الجسور .. بطل المآزق دوماً .. المتسلي بالأهوال أبداً ..
الذي يبصر النظام الكامن في الفوضى المائلة .. والذي يقود بصايره إلى
مشارفها العظيمة الواعدة . . . ! ! !

هذا الكائن الساس المعتقد ، المسمى المركب . . العنيد الجبار . .
صانع الحركة الداهية لكل عقبة . . جاعل المستحيل ممكنا . . ! !
ولكن هل عرفناه حقاً . . أم أننا لا نزال بسبيل أن نعرف . .
وماذا يا ترى وجدناه . . ؟ ؟ ؟



إن الطبائع النهائية للأشياء لم تُعرف بعد . .

والعلوم التجريبية نفسها لم تزعم لنفسها هذه المروءة على الرغم من
الأسرار الكثيرة التي أذاعتها ، والخواص التي كشفتها ، والقوانين التي
وضعت كلقا يديها عليها ، وعلى الرغم مما تتمتع به من تنبؤ ذكي واعتحام
علم . .

ذلك أن تلك الطبائع النهائية ، ترتبط بأزليات أممت في البعد وفي
الخفاء . . ووراء ملايين المصور ، بل وراء كل تصور لازمان والمكان ،
تستقر وتكن الطبائع الأولى للأشياء ، والتي هي أيضا الطبائع
النهائية لها . .

ولقد اكتسبت الأشياء خلال تطورها المديد صفات تفوق كل
حصء وعدد . . بلايين القشرات تغطي حقيقتها السكامة ، ومادتها
الأولى . . وتكشف الأجيال المتساوقة من البشرية ، من هذه القشرات

عدداً مناسباً لذكائها ومقدرتها .. وتصحيح في زهو الاختصار : « ها .. قد بلغت القاع » .. والقاع منها بعيد جداً بعيد . ١١

والطبيعة النهائية للإنسان مثل ذلك .. قارة عظمى ، لا تزال مجهولة ، وما أوتينا من العلم بها إلا قليلاً .

ولقد ذهب علماء الدين ، وعلماء النفس ، وللماء الحياة ، يجوسون خلال تلك القارة الغامضة ، ولا يزالون يفعلون .

أما الدين ، فقد رأى في الإنسان رأياً حسيفاً ..

فهو إذ لم تُنح له الوسائل التي أُتيحت للعلم ، فقد بلغ بالإنسان شأواً عبقرياً بعيداً .. وفي شمول لا يأبه بالتفاصيل أعان رأيه في الإنسان . فهو خليفة الله في الأرض .. وهو الجرم الصغير الذي انطوى فيه العالم الكبير .. هو مَجْلَى مشيئة الله ومظهر عظمته واقتداره . ١١

والتصور الديني حين يصل الإنسان بالله على هذا النمط الباهر ؛ إنما يُحرز تقدماً علمياً وفلسفياً . فهو يعترف ضمناً بلانهاية الإنسان ؛ لأن الله سبحانه لا ينتهى ...

ويجىء العلم . علم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ، فيضع الإنسان تحت مختبراته . وتفجأه أسرار والغاز لا تُؤذن بانتهاء .

يقول العالم الدكتور « الكسيس كاريل ^(١) » :

(١) كتاب « الإنسان ، ذلك المجهول » .

« إننا لا نفهم الإنسان ككل . . ! إننا نعرفه على أنه »

« مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها »

« وسائلنا . فكل واحد منا عبارة عن موكب من »

« الأشباح تسير في وسطه حقيقة مجهولة . . »

« وواقع الأمر أن جهاننا مطابق . . »

« فأغلب الأسئلة التي يلقونها على أنفسهم أولئك الذين »

« يدرسون الجنس البشري ، تظل بلا جواب . . لأن »

« هناك مناطق غير محدودة في عالمنا الباطن ، ولا تزال »

« غير معروفة . . »

« فنحن مثلاً لا نعرف حتى الآن كيف تتحد جزيئات »

« المواد الكيماوية كي تكون المركب والأعضاء . »

« الموقعة للخلية . . »

« كيف تحدد المورثات التي تحتوى عايتها نواة البويضة »

« المخصبة ، مميزات الفرد الذي ينبثق من هذه البويضة . . »

« كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها . . »

« ماهى طبيعة تكويننا النفسى ، والفسىولوجى . . »

« إن العلاقة بين الشهور والمخ ، لا تزال لغزاً . . »

« ولا تزال بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن »
« فسيولوجية الخلايا المعوية . »

« إننا مازلنا بعيدين جداً عن معرفة ماهية العلاقات »
« الموجودة بين الهيكل العظمي والمضلات ، والأعضاء ، »
« ووجوه النشاط العقلي والروحي ... »

« وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها يمكن أن تلقى في »
« موضوعات بالغة الأهمية بالنسبة لنا ، بيد أنها ستظل »
« جليماً بلا جواب .. »

« فمن الواضح أن جميع ما حققه العلم من تقدم في دراسة »
« الإنسان ما يزال غير كاف وإن معرفتنا بأنفسنا لا تزال »
« بدائية إلى حد كبير ... »

إن هذه الكلمات لا تعنى — طبعاً — أن العلم عاجز . لكنها
تعنى أن الإنسان حقيقة ضخمة ، وعالم كبير ، وأنه ليس من البساطة
بحيث تكفى لادراكه تلك الجهود التى بُذلت .. بل لابد من مواصلة
مُعنّية لمحاولات فهمه ، وكشف حقيقته .

ولابد — أيضاً — من ترويض أنفسنا على تقبل الملاحظة
الموضوعية التى تجمل الإنسان غرضها وموضوعها . والتى تعطينا نتائجها
أصدق صورة لحقيقة الإنسان .

إن الدين ، واللم ، والفلسفة ، والفن ، والأدب . قد أبأوا ذرياً
بلاء صادقاً في تمهيد الحياة للإنسان وتمهيد طرائقها . . أوقوارا إن
الإنسان عن طريق هذه القوى قد وطأ أكناف الحياة لنفسه . . وعن
طريق هذه القوى قد جلي ذاته وأظهرها ، ولا يزال يُجْلِها ويُزاورها .
وإن كلمة — إنسان — لتباغ من المظلمة مباعاً يجعل كل إنشافة
لها لغواً . .

وتبلغ من الجلال مبلغاً يجعل نعته بالسورمان فضولاً . .

« السورمان » . . وصف نخاعه على لإنسان لترضى به . .
بحقيقة الإنسان ، ولتبر به عن أمنيات غريرة ، وإن تلك طيبة ،
لستقبلنا نحن البشر . .

ولكن لماذا « السورمان » . . ؟ ؟

لماذا ، الإنسان الأعلى . . ؟ ؟

أولا يكفي أن يكون الإنسان ، وحسب . . ؟ ؟

وهل نجد الإنسان ، حتى تتمجّل بجي ، الأعلى . . ؟ ؟

في رأي أن الإنسان لم يتم بعد ظهوره . . وعو حين يتم ظهوره ،
يجي متضمنا كل كماله . . ويصير وصفه بالأعلى ، شبيهاً بوصفنا الشمس
بالمضيئة . . !

ثم إن هذه الكلمة « السوبرمان » تكاد تخدمنا عن حقيقة الإنسان التي يجب أن نتقباها ونحترمها بكل ما فيها من أشواك وأزاهير .. وتكاد تسيء إلى الجهود البارة العظيمة التي بذلت ، وتُبدل من أجل ظهور الإنسان .

إن الناس الذين عاشوا في العصر الحجري ، والناس الذين سيحيون بعد عصر الكواكب والفضاء ، سواء في التمجيد والتكريم .

والإنسان في بداية تدلورنا — على الرغم من جبهته وعجزه وفوضاه . لا يقل شأواً عن الإنسان القادم في نهاية التطور مع شموق مكانته ومشواه ..

بل الإنسان القادم ، تنفسن للإنسان الزاهب وهو ابنه ، وحفيده . وتناجه .

من أجل هذا نولي وجوهنا في هذا الكتاب شطر الإنسان .. الإنسان الذي ليس أدنى ، وليس أعلى .. والذي لم يترك إلى جواره فراغاً ولا مكاناً لأي وصف مهما يكن شائناً وعظيماً .

الإنسان الذي لا يستطيع أحد أن يحتكر الحديث عنه — لارجل الدين ، ولا رجل العلم ، ولا رجل الفاسفة .. لأنه أكبر من هؤلاء جميعاً ، وأرحب آماداً ، وأفسح أبعاداً من العلم ، ومن الفلسفة ..

الإنسان الذى بدأ ظهوره ولم يتم بعد . . . والذى يتجلى شيئاً فشيئاً ،
سائراً عَبْرَ نفسه ، ملاوياً أعماق كيانه الأزلئ أو الشبيه بالأزلئ على كل
إمكانات تفوقه وإكتماله .

هذا الذى يُحوَّلُ بُؤسه إلى عظمة ، وردائله إلى فضائل ، وعجزه
إلى قوة ، وانحطاطه إلى رفعة .

هذا الذى يُفرغ أمسه فى يومه . . . ويُهدى يومه إلى مستقبله . . .
هذا الذى عندما تجلَّى فى سقراط وأفلاطون ، وعمر بن الخطاب
وماركوس أو ربليرس ، وبوذا وفاندى ، وهيجل وابن سينا ،
وشكسبير والمرى ، واينشتاين وابن الهيثم ، ودبكاتر وابن رشد
والفارابى . . . لم يكن يعنى أنه حقق بهذا التجلى كماله . . . وإنما كان
يعنى أنه يختبر المازف التى ستعرف ذات يوم ، وإلى الأبد ، السمفونية
الكبرى واللحن المبقرى العظيم . ! !

أجل . . . كانت هذه المبقريات كلها — عيّنات — يكتشف بها
طبيعته واستعداده ، ويدرس عليها فطرته ، ويستبين بها وجهته ،
ويختبر صلاحيته .

وإنه لماضٍ إلى يومه الموعود . . . اليوم الذى يرفع فيه جميع أفراد
نوعه إلى مستواه . . . اليوم الذى يصير فيه كل فرد ، إنساناً . . . وتصبح

فيه كل الخصائص العظيمة التي تجلت في عبادة البشر ، مجرد طبيعة
عادية لكافة أفراد البشر . ١١
هذا هو دور الإنسان . .

هذه هي رسالته التي من أجلها يعمل ... هذه هي الثبته التي
استحق بها الزعامة على الأرض بما فيها .

هذه هي المخاطرة الكبرى الظاهرة التي كتبها الله له ... والتقى
عندها بأسرار الكون ، مستخرات بأمره ، مُسرعات إلى مشيئته .



صحيح أنه كان ذلك الحيوان الذي ينطيه الشر في الغابة ... والذي
يجوب الأرض سالباً ناهباً ، يبحث عن صيد يسكت به سمار جوعه ...
صحيح أنه تعلم ذات يوم تنظيم حياته من مخلوقات أدنى منه
وأضال ... وأن بعض أساتذته في ذلك الزمان ، كان الكلب ،
والغراب ، والنمل ، والنحل ، والعنكبوت ... ١١

صحيح أنه عاش أدهاراً طويلة ، بدائياً فظاً ، لا تزيد مظاهر
حضارته عن المراكات ، وحبال الصيد ، والرماح والمقاليع ... ١١
بل صحيح أن أشهى وجبات طعامه كانت — ذات يوم — تلك
التي تتكون من اللحم البشري الذي ألقن شواؤه ... ١١١

وصحيح أنه استعبد الرقيق ، فلما ترقى ... استبدل بالرفيق الأجر
الكادحين ... !

وصحيح أنه شجذ للقتال غاله وأظفاره ... فلما ترقى استبدل بها
الحديد والبارود ... !

وصحيح أنه مارس السبي واغتصاب النساء ، فلما ترقى استبدل بهما
المحاذنة والاحتذاء . !

صحيح أنه عاش طويلا في أحضان الوحشية والفوضى ..

صحيح كل هذا ..

وحق أكثر من هذا ..

ولكن ماذلك جميعه ، وأضعافه معه ، بقادر على أن يمتلي عنة
فضائله .. فضائل هذا الإنسان العظيم .. صانع المعجزات : . مبتكر
الثقافة . . مبدع الفن . . مسبر التاريخ ..

هذا الذي انبثق منه موسى ، وعيسى ، ومحمد ، وبوذا .

هذا الذي صنع الحضارات الغدة بغير آلاف الأعوام .

هذا الذي ظهر في مصر القديمة ، وفي أثينا ، وفي روما ، وفي
بغداد ، وفرطبة ، وأوربا .. ألا إن الإنسان لم يكشِف مد ، إلا عن
القليل من عظمته ، وإلا عن الأقل من مواهبه وقدراته .

وإنه لكادح إلى أغراض وجوده كدحاً ، قُملاً قِيها ..
فانمض معه ، لننظر كيف يعضي عبر نفسه وصَوْب مصيره .

* * *

لعل أنجد لحظاتٍ في حياة الإنسان ، تلك التي اكتشف فيها
وجوده ، واكتشف مع وجوده حرته ، واكتشف مع حرته مسؤوليته ..
واقده فإن هذا الكشف من أعظم آيات حسنه ، وأذكي
أمارات ندرته .

فمن غير وعي وتفكير ارتبط الثلاثة في رؤوه — الوجود ، والحرية ،
بالسؤولية . وهو بعد لا يزال يجهل في دنياه .

عندما ألقى نفسه وحيداً في أرض موحشة غامضة ..
عندما جاء ، وصاحت به أمعاؤه الممتحلة ..
عندما شرّدت أمنه ، وزلزلت سكينته الوحوش الكاسرة ..
عندما أفتحته سبرات البرد ، وبعثته عاصفة تلو عاصفة
عندما نأقت يمنة ويسرة .. قدّامه ومن ورائه ، فما وجد أحداً سواه
لم يستطع أن يتصور نفسه وحيداً مفرداً في كل هذا الفضاء والخلوّ ..
عذوب يقاب في السماء وجهه ..

وكان عاياه أن يابث زماناً طويلاً قبلما يُحسَّ أو يعرف أن له
مؤسساً ومُعِيناً ..

ولكن عوامل إفنائه ، وتقويضه لم تسكن لتنتظر ، ومن ثمَّ وجد
نفسه مَسْؤُوقاً للعمل وحده .. ولا بد أنه تهيَّب المخاطرة بآدى الأمر ،
لكن الأحوال الزاحفة ألقت عليه مسئولية دفعها ، ونادت كل قدراته
للمقاومة .. وهكذا تحركت يده ، ورجلاه ، واحتشدت خلايا غده ،
وأخذت مكانها على أرض المعركة .. ولوَّح للمخاطر بقبضته العارمة ،
فولَّت أمامه مذعورة .. كان يومئذ حراً ، لأنه لم يكن مُنَمَّة دولة ، ولا
قانون ، ولا ملكية ..

وكانت التجربة هى دينه ، وقانونه .. يمارس الشيء بدافع من
فطرته ، فاذا استبان له نفعه أقبل عليه وأضافه إلى قائمة الأشياء التى
ينتفع بها ويعتمد عليها

وكانت مسئوليته عن نفسه ، وعن سلامته وبقائه ، هى التى تحدّد
له مفهوم حريته . وهكذا ارتبطت الحرية بالمسئولية فى وجدانه من قديم
بل وُجِدت حريته كضرورة تقتضيها مسئوليته . أى أنه لىكون
مسئولاً ، يجب أن يكون حراً ، وإلا تقوض بناء مسئوليته ، وانهار
بالتالى وجوده ..

وكان هذا الرباط الفطرى بين حرية الإنسان ومسئوليته .. نقول :

كان ، ولا يزال أصدق البراهين على أنه وُجد ليبقى . ويصعد .. ويسود ..
ولكن كيف وَجَدَ الإنسان مسئوليته ، ومن أى الأنواع تلقّاها .. ؟؟
إنها نبعت من ذاته المتفاعلة مع ما حولها .. أو بتعبير آخر ، نبعت
من علاقاته بالأشياء المحيطة به ، والتي عملاً عاله ..
علاقته بالمجهول الذى عملاً فؤاده رغباً ورهباً - حملته مسئولية
البحث عن كُسنه ، واستطلاع غيبه ..

علاقته بنفسه - حملته مسئولية توفير حاجاتها الأساسية من مطعم
وملبس وصيانة .. كما حملته مسئولية العمل المشترك بين أفراد النوع كله ..
علاقته بالأخطار التى تهب عليه فى صورة أعاصير ، وتجرى أنحوله
فى صورة وحوش مفترسة - حملته مسئولية مقاومتها وتحميها ..
علاقته بوطنه الأرض - حملته مسئولية إعدادها لتكون مقراً
صالحاً لطول الثواء ..

ولقد مارس مسئولياته فى كدح عظيم حتى إذا اطمأن إلى قدر
كاف من السيطرة على بيئته ، ودَعَمَ الزمنُ الطويل علاقته بهذه البيئة ،
شرع يفلسف هذه العلاقات ويحللها .. ومن ذلك الحين بدأت متابعه
الجليلة ، وهوومه النبيلة .

وإنها لإحدى المفارقات التى عملاً حياتنا . فى الوقت الذى نبدأ فيه
نعرف ، نبدأ كذلك نتعب .. ذلك أن المعرفة - أى معرفة - تبسود
(٢)

دائماً وكأنها ولادة بين مخاضين ..

فمستولياتنا تلح علينا كي نعرف ..

ومعرفتنا تولد مستوليات جديدة ..

والمستوليات الجديدة ، تنجب بدورها معرفة أخرى .. ربما

ولقد كانت تلك الملاحظات تنتشر وتعمد ، كلما قلب الإنسان فيها يديه يريته

وكل فهم جديد لها ، كان يمنحه سلطاناً عليها ، وفي نفس الوقت

يخضعها سلطاناً عليه

وهكذا بدأ الإنسان يواجه مأزق حياته كلها . ومن عجب أنه بدأ

كذلك في نفس اللحظة ولنفس السبب يُمسك بجميع الزمان !

كيف صنعت المعرفة مأزق الإنسان ؟؟

قلنا : إن موضوع المعرفة تمثل أول ما تمثل في علاقته بالإنسان ..

وهذه الملاحظات تنطوي على قدر كبير من التحير من الغموض والتأني ..

فهو — مثلاً — لكي يسيطر على الظلام ، يصنع شئلاً النار ،

تضيء له ظلماته المخيفة .. ولكن هذه الشعلة الضئيلة النافذة ، تتحول

أحياناً إلى حريق ياتهم كوخه ، ويدمر معيشتة ..

وهذا البحر الذي سمح له أن يطفو فوق سطحه في زورق ، يجدد

وشراع ؛ والتي يطعمه من أسماكها طويلاً ، يرسل إليه مدداً وانمياً

يبتلعه ويطويه تحت أمواجه ، ووسط غياهبه ..

وهذا الدلر — أيضاً — يهطل غيثاً يرطب صحراءه الالهية ، ويسقى
أرضه المحبوبة .. بيد أنه مرة أخرى يسيل طوفاناً يقضى على كل ما عماته
الدمار ، وهو في حاجة إلى كل ما حوله على الأرض من مخلوقات وكائنات
يدعم بها وحدة البقاء .. ولكن شيئاً آخر يدعو إلى التنافس والمناجزة ،
اسمه تنازع البقاء .. !

وشعركي يحمل على حاجته من شيء ما .. ، عايد أن يسطى
ما يساوى قيمته من شيء آخر .. !

« ثم إذ بنادر السيد إلى الزراعة ويفرح بما سيأقاه من استقرار
والسلام وإشمار ، إذا بالوضع الجديد يشعر تقيض ما كان ينتظراً منه ..
الرق والاستعباد .. ! »

ثم « يا نذير ، بذائم التورث ، اترك لأريته الضمائم ما يسون
حياتهم .. فإذا هو يفضى إلى خلق امتيازات ، وطلبات ناسلة ،
لامية .. »

« في الأشياء حركه ذات وجهين .. وكأن الحياة كلها تعمل داخل
الأم .. ، وتد على التماقر والتنافس .. مثل حركه قلب الإنسان نفسه ..
الانحسار .. ، وانسداد .. ثم انقباض .. ، وانسداد .. وبينين الضدين
تأشده حوزة الدم مجراها ، وتبقى للسكان الحي حياته .. او مثل العلامة
البرانية (ا) فهي خطان متعارضان ينتيجان حاصل الجمع كله .. لكانتا

حركة الحياة كذلك .. ضربة رأسية بالطول . ، وضربة أفقية بالعرض ..
تناقض دائم ولُود ...

وفي هذا التناقض واجه الإنسان مأزقه . وفيه أيضاً عثر على الكثير
من وعيه ومن هنا دخلت مسئولياته مرحلة جديدة ، وصارت تتمثل
أكثر ما تتمثل في :

- اكتشاف علاقاته الصحيحة بجميع الأشياء ..
- إدراك الفلسفة الكامنة ، في التناقض المائل ..
- السيطرة على عملية التناقض في كل مظاهرها ، وتوجيهها دوماً
صوب المصير الإنساني ..
- إن احتياجات الإنسان لا تنتهى .. والتعبير عنها كذلك لا ينتهى ..
- احتياجاته كثيرة ومعقدة .. والتعبير عنها كذلك كثير ومعقد .
- ولطالما أحدث ذلك ، النزاع والخلاف بل والحروب .
- فإذا هو قاعل اليوم ، وقد بلغ رشده ، ووجد وعيه .. ٢٢٢

لقد توافر الإنسان على دراسة نفسه وعالمه منذ وعاهما . وانتهت
خطوط تفكيره المتوازية حيناً ، والمتداخلة أحياناً إلى مرحلة فكرية
معاصرة تبدو لنا متعددة السمات ، مختلفات الاتجاه .

فند تكلم « هيجل » معلناً فكرته عن التطور التاريخي أو النتيجة المركبة ، اتضح طريق صعب على الفكر الإنساني أن يتجاهاه .. وجاء التفكير الماركسي ليميد تخطيط الفلسفة الهيجلية . ولبوى زمام الحركة التاريخية شطر التنوير الثوري .. نافضاً كلتا يديه من المثاليات كلها معلناً أن علاقات الإنتاج دون سواها هي التي تقرر مصير الجماعة الإنسانية ، وتقود زحفها . مؤيداً صراع الطبقات باعتباره الحافز إلى الشيوع المنظم ، وبالتالي إلى الثقافة النابعة من التفكير العلمي والمادي ، والتي تصنع بدورها أو تكتشف أخلاق المجتمع الجديد .

x x

ولكن تفكيراً آخر معاصراً ، يمان أن أزمة الإنسان الكبرى ماثلة في تمزق صفوفه . هذا التمزق الذي يفضي إلى الحروب والدمار ، وينشر الأناية البغيضة .. ومن ثم فلا بد من وحدة عالمية تحمل لواء حضارة عالمية واحدة تقوم على السلام ، والرخاء ، والمساواة .. والمساواة في هذه الوحدة لا تتحقق تلقائياً ، ولا تثمرها الوعظة الحسنة ، ولا التنفير الثوري .. وإنما تجيء بفرض رقابة اقتصادية ، عالمية ، فدرالية .

كما أن السلام ، والرخاء لا يجيئان عفواً الصدفة ، وإنما عن طريق التربية التي تلقن الإنسان أنه ليس مواطناً عالمياً وحسب .. بل هو أيضاً

مواطن تاريخي ، بينه وبين كل عصور التاريخ أواصر قرينة ونسب ..
ويتم ذلك كله في نظام يعتمد على الديمقراطية ، والحرية .

x x

وينهض تفكير ثالث ، مردداً من جديد صيحة سقراط « اعرف نفسك » ..

ومشكلة الإنسان الأساسية في هذا التفكير ليست اقتصادية ،
ولا سياسية ، ولا اجتماعية . بل هي روحية خالصة .

فالقنطرة الدينية والروحية التي يعانىها الضمير الإنساني هو التي
يهدد حياته ..

لقد صعد العلم بالإنسان إلى القمة ، ولكن ألقاه أعادته إلى
السفح .. ١١

إنه - مثلاً - اكتشف الطاقة الذرية ، وبدلاً من أن يسول بها أرضه
المكدودة إلى فردوس بهيج .. ذهب وأقامها على « هيروشيما »
و « ناجازاكي » فدمرها وأهلها تدميراً .. فتذير القات الإنساني ،
لا تغيير النظم ، ولا تنير المجتمعات ، هو مناص الخلاص .. والأخذ
بروح الدين ، ونهب شهوات الأنفس هما سبيل النجاة ..

نعم . أن يضع الإنسان يده في يد الله .. وألا يجعل غرض حياته
القهر عن ذاته . بل إنكار ذاته .. وأن ينذر نفسه لحقيقة روحية
ساعية ..

هذا — وحسب — هو ما يفتقده الإنسان اليوم لكي ينهض ويبلغ
كتابته أجاه .

x x

وثنى هـ ثان آ و . بنى تفكير آخر لا يقول : « اعرف نفسك »
ولما يصيح : « أريد نفسك » ١٠٠

لكي نعرف أنفسنا ، علينا أن نتأكد من وجودها
إننا أعطينا العقل لتفكير به ، فأعطيناه .. وأعطينا الغرائز لنشبعها
فقمعناها .. وأعطينا الحواس لتطل منها على العالم الموضوعى فمطلناها ..
إن الإنسان فرد . قبل أن يكون مجتمعا . ومن حقه الكامل أن
يختار قيمه وطريقة حياته .. ومن وجوده المحض .. وجوده الذاتي يستمد
مما يبره الخلافة .

ويبقى هذا التفكير ، أن مشكلة الإنسان تتمثل في أن حياته اليوم
أشبه ما تكون بزقاق مسدود ، تنشأها « طمأنينة زائفة » وتحركها

« رَكَابَةُ مُجَلَّةٌ » وأنه — أى الفرد الإنسانى — يعيش ممثلاً فى دور مفروض عليه ، ويقضى عمره تأثراً وسط مخلوقات تأتية
أى أنه لا يعيش حياته ، وإنما يمثلها . .

والخلاص إذن أن يدرك الإنسان أنه خالق نفسه ، وأن يحيا فى نطاق « قدره الشخصى » الذى يصنعه هو لا « قدره الاجتماعى » الذى يريد له المجتمع . ، وأن يخرج حياته من رتابتها المملوءة ودورها المصطنع . .
إن ماهية الإنسان أمر ثانوى بالنسبة لوجوده . أو هى أمر تال للوجود . .

والمفهوم الصحيح للوجود ، هو الاختيار . . وهو القدرة على تخطى الوضع المائل ومجاوزته .

x x

ويعلم تفكير آخر أن مشا كل الإنسان جميعاً ، قد تسلمتها اليد البارة ، يد العلم . .

والعلم وحده هو الذى سيقود الإنسان إلى غايته ، ويجمعه بمستقبله العظيم . وإن علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والنفوس ، والأحياء قد برهنت بعد الشوط الطافر الذى قطعته على جدارتها بحمل العبء كله . . والعلم

سيجعل المشاكل الاقتصادية كلها مباحج ومناعم حين يوفر من الرخاء
مالاً يخطر ببال .

إن العلم الذي أحال الصحراء إلى مزارع .. والذي أنجب من الأنعام
المهزلة سلالات فذة تعطى الواحدة منها من اللبن في حلبة واحدة ،
مثلاً كانت تعطيه سبعون أو ثمانون .. والذي أخرج من الفول السوداني
وحده قُرابة مائتي نوع مابين غذاء ، وكساء ، ودواء .. والذي بسط
يده إلى القطب المتجمد ، داعياً إياه إلى الاستسلام كي يستثمره
ويزرعه .. والذي أنزل كثيراً من الأمراض المصيبة عن عروشها
الباغية ، وخفف نسبة الوفيات ..

العلم الذي عكف على العقل الإنساني ، وعلى النفس البشرية وبدأ
يكشف أسرارها . ويسبر غورها .. والذي صعد بالآلة وبالصناعة إلى
ذروة السمل والإنتاج .

العلم الذي طار إلى القمر ، ثم جاوز القمر إلى الشمس .. هذا العلم ،
هو الذي يحمل البلمس الشافي لكل متاعب الإنسان ومصاعبه ، وهو
الذي سيقوم بتطوير الإنسان تطوراً كاملاً في كل مجالاته الخلقية ،
والفكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

ومشكلة الإنسان إذا كانت له اليوم مشكلة ، هي ضعف ثقته بالعلم ،
وضعف قدرته على مسايرة العلم .. ولكن حتى هذا الأمر ، سيتولى
العلم علاجه ، وليرفع الإنسان إلى مستواه في يوم قريب ..

هذه تقريبا — هي الفلسفات المعاصرة التي تعمل في خدمة الإنسان ، وهذا هو منطقها .

فأين الإنسان من كل هذه الفلسفات ... ؟؟

إنه خالقها جميعاً ، ومُبدعها . ولقد كانت كلها مستقرة في رُؤىة وُفق فطرته منذ أيامه الأولى على هذه الأرض وفي أشد عصوره الماضية جهالة وحُلْكة .

وإنا لنستنبط من هذه الظاهرة رأيا نحسبه صحيحاً .. هو أن شرما يصيب البشرية من تمزُّق وخلاف ، إنما يحدث يوم تعزل الإنسان عنها وتنسأه .

فمظم نزاعنا الديني ، والعلمي ، والمذهبي ، كثيرا ما يسيبه أننا نتعامل كما لو كنا عوالم شتى متنافرة .. ولسنا صفاً واحداً ، تتوسطه حقيقة معلومة هي الإنسان ..

إن الفلسفات ومناهج التفكير التي عرضناها آنفا تمثل كل ألوان الصراع الفكري القائم في مجتمعاتنا الإنسانية اليوم .. فلننظر الآن كيف أن « الإنسان » يتضمنها جميعاً ، ويتطلبها جميعاً كحاجات أساسية له ولحياته منذ وعى نفسه ، وليس اليوم فحسب ..

فالزعة الروحية مثلاً ، تتمثل في الوجدان الإنساني من قديم عهده . كما تتمثل في وجدانه من قديم ، قيمة التركيز على وجوده ،

وقيمة الإنتاج وفاعلية علاقاته ، وقيمة العلم والتجربة .

كيف حدث هذا ؟؟

فلنفحصها جميعاً . واحدة واحدة . .

x x

لقد أحسَّ الإنسان قديماً ، وقديماً جداً ، حاجته إلى الدين ،
فذهب يتكشفه .

وقد تبدو كلمة — يتكشف — هنا ، انحرافاً وتجديفاً .

قد تكون صِرة المضم لَدَى أولئك الذين يرون أن الدين هو
الذي اكتشف الإنسان . ولكن الحقيقة هي ماقول : إن الإنسان
اكتشف الدين . . ولكأنما اختارت الحكمة الإلهية له هذا الطريق ،
ولسوف نوضح هذه النقطة في فصل قادم . والآن نضرب لما نقول مثلاً .
تقدمه لنا وثيقة لا تكذب هي نبأ إبراهيم في القرآن الكريم .

وإبراهيم — كما نعلم — هو الأب الروحي للديانات الثلاث —
اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام .

لقد رأى إبراهيم القمر بازوا يتلألاً ، وكان آتئذ يبحث عن رب
يعبده . ويشبع بعبادته حاجة ملحة في نفسه ، ويملاً فراغاً أضنى وجذابه
خلقاً وخوفاً . فأشار للقمر الذي بهره نوره ، وقال : « هذا ربي » . .

ولكن القمر أقل .. وأدركته الليالي التي يَخْتَنِقُ فيها ضوءه ،
ويتحول إلى سُحَّاق .. فهزَّ إبراهيم كتفيه اسيفاً .. وقال : « لا أحب
الآفلين » ..

واتجه صوبَ الشمس ؛ فلما رآها بازغة ، قال : « هذا ربى . هذا
أكبر » ...

فلما أفلت ، قال يا قوم إني برىء مما تشركون ..
ومضى إبراهيم يبحث عن دينه ، بل يبحث عن ربه وإلهه .
ولأنه ليتصور الإله كلاً مطلقاً .. ولقد ابتنى الكمال فى أقرب
مظانته ، وهو القمر المضيء .. ثم فى الشمس المشرقة باعثة الدفء والحياة .
حتى إذا اكتشف حاجتهما إلى الكمال ، ضنَّ عليهما بالربوبية ..
ولم يكفَّ إبراهيم عن بحثه واستشراقه ، لأن حاجة فى أعماق نفسه
البعيدة تحفزه وتدفعه — وإبراهيم فى بيئته وفى عصره ، كان يمثل أعلى
مناسيب الذكاء الإنسانى .

انظروا طريقته فى البحث عن ربه ..

إنه مع كونه مُخْبِتاً عابداً ، يبحث بحث فيلسوف حر ..
يفتش فى الأنهار ، والبحار ، والزرع ، وبين الخشب والنباء ،
حتى إذا لم يجد فى الأرض ما يمثل صورة الكمال الإلهى عنده ، يتجه
إلى السماء ويركز بصره على أكبر أجرامها .. حتى إذا لم يحقق له مثله

الأعلى ، ينفض عقله وقلبه من المجسمات جميعاً .. ويشير إلى السرّ
الأكبر الكامن في الحياة وفي الكون ، ويهتف وقد وجد يقينه :
« إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، حنيفاً
مُسْلِماً ، وما أنا من المشركين » ..

مَنْ هذا الذي فطر السموات والأرض ؟؟

ما صورته ؟؟ ما مشهده ؟؟ ما مكانه ؟؟

ذاك شيء لا يشغله الآن .. إنما يمتنيه وجود الرب القدير الكامل
الذي يملأ فراغ نفسه الطلّمة ، والذي يفسّر وجوده ، ما في هذا الكون
المعجيب من آيات بينات ..

ولقد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام ، كما جاءت من قبله مواكب
الأنبياء والمرسلين .. وقامت الأديان والشرائع ، وسار على الأرض آلاف
من القديسين والخُفّاء ، فما زادوا في الجوهر شيئاً عن رؤية إبراهيم
هذه الرؤية التي زاملت الإنسان من فجر تاريخه شعوراً مُكَيِّفاً ،
وهتافاً دائماً يدوّى في أعماقه والتي أجاد إبراهيم إدراكها والتعبير عنها .

x x

وكما أحسن الإنسان حاجاته الروحية والتمسها في الدين ، أحسن
كذلك حاجته إلى التركيز على وجوده

لقد ولد الانسان في عهد وجوديته .. وحين بدأ يعي نفسه كان يحقق وجوده المحض بطريقة تلقائية فطرية

لم يكن ثمة أوامر ، ولا نواه ، ولا قيود ..

ولم يكن يمثل حياته بل كان يعيشها كاملة غير منقوصة

وكان قدره الشخصي صاحب الكلمة الأولى ، والعليا في توجيه حياته . فليس هناك حكومة تخضعه ، ولا مجتمع يصهره

ولقد مكث طويلا ، يدور في فلك وجوده المحض .. وحتى بعد أن خشي العزلة على نفسه وعلى كيانه ، ونادته ضرورات بقائه ليندمج في .. فرديته أمينة على حقوق ذاته ، ساهرة على دعم وجوده .

كذلك أحس الانسان في طفولته المبكرة حاجته إلى تنظيم إنتاجه .. وأحس .. ولا أقول وعي .. أهمية علاقات الإنتاج . بالنسبة لمصيره . وإن الطريقة التي كان يفرق بها الانسان الأول بين الملكية الشخصية ، والملكية العامة لتكاد تبهر الأبواب بما تكشف من إحساس ذكي بأهمية علاقات الإنتاج

فالإنسان في ذلك الدهر الأول كان يقدس الملكية الخاصة ولا يسمح قط بالافتيات عليها .. وبلغ من ارتباطه بها أن كان يأخذها معه إلى قبره بعد موته ، حتى الزوجة باعتبارها ملكا له . كانت تفقد

حياتها حين يموت زوجها وتأخذ مكانها إلى جواره في القبر بين ممتلكاته الخاصة . . ١١

هذا الولاء الضاري للامتلاك لا نجد له أثراً حين تغادر الأشياء الخاصة إلى المنافع العامة كالأرض مثلاً . .

فالأرض عند ذلك الإنسان كانت كالماء والهواء لا تباع ولا تملك . .
وهي ملك لكل الذين يعيشون عليها ويعملون فيها . . ١١

وليست الأرض وحدها ، بل والقوت الذي يخرج منها .

وكم يأخذنا العجب ، حين نعلم أن الإنسان الأول وضع لنفسه ولجماعته تقليداً : ألا يقرب طعامه إلا بعد أن يقف خارج كهفه ، ويصرخ مندوياً بطريقة خاصة يدرك كل من يسمعا أنها دعوة إلى طعام .
واعتر الإنسان البدائي بهذه المشاركة في الأرض التي كانت الوسيلة الوحيدة لإنتاجه عندما وجد أنها تتيح لأفراد الجماعة علاقات وحدودة لا أنانية فيها ولا نزاع .

ومن البقايا المتخلفة عن ذلك الإنسان القديم ، التي « الفرد رسل ولاس » ببعض منها في أمريكا الجنوبية فقال ^(١) :

« لم أجد بينهم قانوناً ، ولا محاكم سوى الرأي العام الذي »
« يعبر عنه أهل القرية تعبيراً حراً . . »

(١) كتاب « قمة الحضارة » تأليف ديورانت

« فكل إنسان يحترم حقوق زملائه احتراماً دقيقاً . »
« والاعتداء على هذه الحقوق يندر وقوعه أو استحيل »
« إن الناس جميعاً في مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً . »
كذلك التقى « هرمان ملقييل » بقوم آخرين في جزيرة « ماركساس »
فقال عنهم :

« أثناء وجودي بين قبيلة التابوي لم يقدم أحد قط »
« للمحاكمة بتهمة الاعتداء على غيره من الناس ، وسار »
« كل شيء في الوادي سيراً هادئاً متسقاً على صورة »
« لا تجد لها مثيلاً في الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها »
« خيرها ، وأصفها ، وأتقها »
« وإن في هذا القول مني لجرأة أستبيحها ، لأنه قول »
« صدق .. »

x x

كذلك أحس الإنسان قديماً جداً ، قيمة العلم وممارسة قبل أن يعرف اسمه
نعم مارس الإنسان العلم التجريبي على النطاق اليسور . .
لم يكن يملك العامل ، ولا الأجهزة ، ولا المختبرات ، بل ولا الوعي

الذى يلاحظ به الظواهر ، ويستنبط به القوانين ، ومع هذا أحسن حاجته للمحاولة العلمية ، وعبر عنها في حدود طاقته ، ومضى يكتشف ويستخدم ، فاكشف النار ، واستخدم الحديد ، وما وقفت به القناعة عند شيء واحد ، بل كان دائماً يجاوز الأشياء إلى خير منها فهو - مثلاً - بدأ يولد النار من الشرر المتقاذف حين يطرق حجراً بحجر وكان من الممكن أن يكتفى بهذه الوسيلة ما دامت تُظفره بحاجته من اللهب غير أن هذه الوقفة ضد طبيعته ، وما دام قادراً على تصور وسيلة أفضل فلن تهدأ نفسه حتى يبلغها ويخرجها إلى الوجود وهكذا يترك الحجر إلى أدوات تقذح لها النار ، مضى يشكها ، ويطورُها في دأب يشير إلى إصراره الفطري على اكتشاف الأشياء والسيطرة عليها . . . واليوم ، نبصر لكل مظاهر التقدم العلمى جذوراً في المحاولات البعيدة الغيرة . .

فالموارخ الموجهة : ليست إلا امتداداً لنفس المحاولة التى بدأها الإنسان القديم بقذف الحجر ، والرمى بالقلاع . .

وأحدث وسائل إطفاء الحريق اليوم ، امتداد لمحاولته الأولى ، إطفاء النار بالطين . .

ووراء كل ظاهرة حضارية ، وكشف علمى ، ملايين المحاولات ، والحلقات التى يُعتبر كل منها أثراً لما قبلها ، وسبباً لما بعدها .

وإذا كان الإنسان الأوّل لم يدرك المفهوم الذى يدركه أسلافه

اليوم لكل من العلم والحضارة ؛ فإنه قد أحس في عمق حاجته إليهما ،
ومارس كلا منهما ممارسة فطرية .

مارس العلم ، كشيء يسيطر به على الطبيعة ، ومارس الحضارة ،
كجموعة من الاستجابات تُطوّر حاله إلى أرق وإلى أفضل .



إن الإنسان يحقق ذاته ويمجاوزها دائماً . . والمستويات التي عبّر
فيها عن استشرافاته الدينية ، والعلمية ، والفلسفية تختلف وتتفاوت
لهذا السبب - أعني مجاوزة ذاته .

ولكن القاعدة التي لا تكاد تتخلف ، والتي ينبغي أن نكون على
وعى بها هي أنه يسير عبّر نفسه .
إنه يخلق احتياجاته ويستجيب لها . . ويكشف قدراته
ويسبر عنها .

ونفسه هي كل هذا العالم المتلىء اللغيم بالأسرار . . عالمه النفسي ،
والعقلي . . عالم شعوره ، وفكره ، وإرادته .

لهذا يكون ظلام أكيد له ، وجهلاً واضحاً به ، أن نسجته في زاوية
من زوايا وجوده الفسيح المتراحب ونحصر كل استشرافاته ونشاطه في
انكاسات هذه الزاوية وحدها .

ذلك أن جوهر العمل الإنساني ، هو تحقيق الكيان الإنساني ،
ودعم انتشاره المستمر ، ونموه اللانهائي ، حتى يتمكن الإنسان دائماً من
عملية التخطيط والتجاوز التي يتم بها معرجه .

والكيان الإنساني متمدد الاحتياجات كما أسلفنا ، ومن ثم فلا بد
أن تحظى بالتقدير والاحترام كافة استشرافاته الدينية ، والعلمية ،
والفلسفية ، مادامت وثيقة الصلة ينقائها الفطري . ومادامت بمنأى عن
الإضافات الكاذبة المفتعلة التي تطفلت عليها عبر الزمن .

وهكذا نلتقي بالحفاوة سبي الساعين لتحرير وجودنا ، والساعين
لإعلاء كلمة الله في أفئدتنا ، والساعين لربطنا بحركة التاريخ ربطاً يجعلنا
سادة الإنتاج لآعبيده ، والساعين لأرباء مكانة العلم ، والداعين للاعتماد
عليه في كل شئوننا .

ونحن نبارك الحوار والجدل ، بل والنزاع الفكري بين هؤلاء
جميعاً بضمهم لبعض إذا كان تركيز كل فريق منهم على اتجاهه يعني إبراز
الزايا النهائية ، أو الممكنة لهذا الاتجاه . . . أما حين يعني هذا التركيز
التفرد والسيطرة ، بمعنى أنه وحده الحق ، وما سواه باطل وغرور . . .
فأشدد يحق لنا أن نشك كثيراً في قيمة هذا الادعاء

لسنا نحاول بهذا عقد صلح بين الفلسفات ووجهات النظر الكبرى .
إنما نريد أن نركي فكرة تبلغ من اهتمامنا أقصاه . ، هي أن الإنسان

— كما أسلفنا — يسير مَعْبَر نفسه .. ونفسه عالم مملوء بالاحتياجات .
وطبيعته النهائية لم تعرف لنا بعد حتى تتعبد مزاجها الأوحـد .

ولذا ، يتحتم جعله المعيار لكل عمليات تطوره وحياته . . ويتحتم
احترام احتياجاته النابئة من أعماقه .

ولقد حَذَق الإنسان الدرس من أقدم عصوره . فواءم مُواءمة
فطرية ذكية بين كل احتياجاته دون أن ينقسم من أجلها على ذاته .

كان يرسل الطرف في خشوع نحو معبوده . وفي نفس الوقت يتابع
محاولاته المتواضعة للكشف والاستخدام اللذين يسيطر بهما على عالمه ،
وكان يكتشف علاقاته وينظمها . ويدعم وجوده — في ذات الوقت الذي
يبنى فيه مجتمعه . .

صحيح أن بعض مراحل تقدمه ، تقسح الطريق دوماً لمراحل أخرى
جاء دورها . . لكن ذلك لا يعني تهدم بنيانه . . بل يعني تكامل البناء .
وبعبارة أخرى نقول : إن الإنسان خلال تقدمه لا يفقد السيطرة
على نفسه ، وإنما يُعزِّزها ويظفر بالكثير من وجوه إدراكها . . وهو
بهذا لا يتخلى إلا عن تلك الاحتياجات العارضة التي كان لها دور موقوت .
بينما يظل متشبثاً بالأخرى التي لها بجوهره وشائج وأسباب .

والإنسان لا يعرف أنصاف الحلول ، ولا يقفل راجعاً عند منتصف
الطريق . وإنما يذهب بنرائه وبأشياءه إلى نهاياتها . . ثم يجاوزها إلى

سلوك يتضمن أسباب كفايته في مستوى أعلى ..

وكما أنه قادر على تحويل غرائزه الحيوانية إلى حاجات إنسانية ..
فسيكون قادراً على تركيز هذه الحاجات في النمط أو الأنماط الملائمة
وعلينا - إلى أن يفعل هذا - أن نحترم احتياجاته القائمة ..

إن الذين يحاولون وضع الإنسان داخل إطار فلسفي معين يشبهون
الذي يحاول تركيز أخيار الهرم الأكبر في هذه العبارة « مجموعة من
الحجارة المرصوفة في ارتفاع طوله ... وقاعدة عرضها ... » !!

فالهرم الأكبر فعلاً مجموعة من الأحجار ، ولكنه ليس ذلك
وحسب .. بل هو أسرار وتاريخ ، وحضارة .. هو عالم حافل بمعجزات
العلم ، ومتطلبات الروح ، وعمل السواعد الشداد !!

كذلك الإنسان لا يستطيع أحد أن يدّعيه لنفسه ، لارجل الدين ،
ولارجل العلم ، ولارجل الفلسفة ..

ومصايره ليست بيد مُتَقَدِّده وحده ، ولا بيد الفلسفة ، وحدها
ولا بيد العلم وحده ..

إنما هي بيده .. يد الإنسان العائش وسط احتياجاته ، المدرك
تبعات حياته .

وكما تألق هذا الإنسان في قلب عهد المسيح ، وموسى وإبراهيم ،
تألق أيضاً في قلب بوذا .. وتألق كذلك في قلب الفارابي ، وابن رشد ،

وابن سينا ، وأرسطو ، وهيكل ، وماركس . . . وتآلق أيضاً في قلب
كوبرنيكس ، وابن يونس ، وجاليليو ، ونيوتن ، وأنشستين ، ودارون ،
وجابر بن حيان ، وابن مسكويه وتآلق في قلب أبي بكر الرازي ،
وباستير . . وفي قلب المرّي وشكسبير .

وهو في كل هذه التألفات التي تفاوتت منازلها ومصادرها لم يكن
يتنزه أو يزجي فراغاً . . وإنما كان يعبر نفسه ، ويعبر عنها .
كان يكشف عن حاجة في صميم كيانه ورسالته ، تدمره التحاليل
في كل هذه الآفاق جميعاً . . آفاق الغيب وآفاق الشهادة . . آفاق الدين ،
وآفاق العلم ، وآفاق الفلسفة . . .

الإنسان مادة يحضارته

كان « قولتير » يقول : « أريد أن أعرف الخطوات التي سارها الإنسان من المعجزة إلى المدنية » و — قولتير — بعبارة هذه يصور حاجة من أذكي حاجت وعينا الإنسانى .

معرفة كيف سار الإنسان ذلك الشوط المديد المنهك ، وكيف غادر القارة إلى المدينة ، والوحشية إلى الحضارة ، وفي أية قافلة مفتحة مكابدة اجتاز الصعاب ، وتخطى الأهوال ، واقتحم المخاطر . .

معرفة هذه ، وحسن إدراكنا لها أمر ذو بال وخطر ، في تقييم الإنسان واكتشاف دوره .

وإذا لم يكن هذا الكتاب مجالا لتفاصيل هذه المعرفة ، وتببع خطوات الطريق جميعه ، فإنه — وحسبه هذا — سيكتفى منها بالسّمات التاريخية التي تنبىء في صدق ، كيف كان الإنسان ، ولا يزال ، مادة حضارته . لقد أَلِفْنَا أن نربط بين المظاهر الحضارية ، وبين الطبيعة .. أوبينها ، وبين ظروف أخرى موضوعية .

فمثلا ، الحضارات التي قامت على شاطئ البحر الأبيض ، وعلى شطآن أنهار النيل ، والفرات ، ودجلة ، والسنج ، والدانوب ، والسين والتايمز . . كثيرا ما نجعل هذه الشطآن مادة تلك الحضارات .

ونحن ندرك بداهة أن هذه الحضارات لم تكن شيئا ثابيا داخل أصداف البحر ، وقيعان الأنهار .

ولعللما لبثت المحيطات والبحار ساجية أوهادرة ، تصطفق أمواجهها
آلاف القرون في خواء مُوحش حتى أتاها الإنسان .. وعندئذ طوَّعها
لأغراض وجوده ، وغرَّس على ضفافها المهاجمة مباهج فنه وروائع
حضارته .

وكذلك نصفُ عصرنا هذا بمصر الآلة .. وننطق كلمة « الآلة »
في فُتون ، وهُيام ، وتبثُّل .. وكأنما نريد أن ننسى في ضجيجها الحافل
شأن خالقها العظيم .. الإنسان .. !!

الحق أننى بهذه السطور أقرر بديهة معروفة .. وليس أسوأ ما فى
الأمر حاجتنا إلى تذكرها وتدبرها ... بل حاجتنا إلى التوسل بها للدفاع عن
الذكاء الإنسانى الذى هو فى عصرنا هذا موضع التندر والالتهام .. !

أجل ، إن الذكاء الإنسانى الجدير بكل ثقة وكل حفاوة وكل احترام
يُتهم اليوم ، كما اتهم فى عصور سالفة بجريمة القتل ، والقضاء على الجنس
البشرى كله ..

لقد كان هذا شأن الناس معه فى عصور خلت .. بيد أنه فى عصرنا
هذا يأخذ أوفى حظوظه من هذا الالتهام .. !!

كلما اخترع سلاحاً جديداً .. كلما اكتشف من قارات المعرفة
والعلم جديداً .. طار صواب الناس ، وقالوا : وداعاً للحياة .. شهيدة
ذكاء الإنسان وغروره .

والناس في هذا التطير معذرون ، وماومون .. معززون .. لأن
الذكاء الإنساني في انطلاقه الجسور يخطف أبصارهم ، ويفجأهم
بالمعجزات التي ما كانت تخطر لهم ببال ، فيتركهم سُكاري ، وما هم
بسُكاري .. !

وماومون .. لأنهم لا يسيطون عقولهم بعض البسط فتعود إليهم
بكل أسباب الثقة بذكاء الإنسان .

إنهم يركزون أبصارهم على الأفراد ، والجماعات ، والحكومات ،
والمخترعات ، والأحداث ... وطبعي أنه من اليسور لهذه القوى إذا
احتدم التناقض بينها واضطربت موازينه ، أن تنتهي إلى كارثة الختام ..
بيد أنهم ينسون الحقيقة الناصبة الفاعلة والبائرة وسط هذا
الشّتات .

أجل ، ينسون الإنسان .. !

وسيدو لكثيرين أن يتساءلوا : وما الإنسان ؟ . أليس هو هذه
الأشياء التي سلفت : الأفراد ، والجماعات ، والأحداث .. ؟؟ .

أجل ، ما الإنسان الذي هو مادة حضارته ، وأستاذها ، وخالقها ؟
هل هو الفرد .. ؟ أم هو الجماعة .. أم هو التاريخ والحركة الإنسانية
الدائمة .. ؟؟

أم هو شيء خارج عن هذه جميعاً .. ؟؟

الحق أنه لا بد من تتبع التفكير الإنساني في هذه المسئلة قبل أن
نظفر بجواب ؛ فقد اختلفت أحكامه ، وتمددت افتراضاته في سبيل
الوصول لمن صاحب الدور الفعال في بناء حضارتنا .

يخرج من بين الجماهير الطامية ، والجموع الفقيرة أفراد يرتفعون في
الأفق كالشموس .. هذا رسول ، وهذا عالم ، وهذا فيلسوف .. ولا
يكادون يُطْلَون على الناس برسالاتهم حتى يلقفهم ويقودهم إلى الطريق
الذى يختارون . ونبصر أثرهم في توجيه الحوادث واضحة ، فننمتم بأنهم
الغَيْرُون وجه التاريخ . ونرى الخلود الذى يظفرون به عبْر الأجيال
ويتفوقون به على الزمن فلا يداخلنا ريب في قيمتهم كأفراد أفاض ..

● — مثلا نسمع اسم سقراط ، فتساءل من فورنا أين أمة سقراط ؟
أين أثينا التى ظهر فيها وخفق في سمائها .. ؟

لقد فنيت أُمته ، وفنيت مدينته ، وبقي — الفرد — سقراط يتنقل
في وعى الأجيال .. بل لقد تحول إلى شمس بشرية ، دارت في فلكها
كواكب من البشر ونجوم ..

● — ونسمع اسم نابليون ... رجل كتب في طفولته وهو تلبيذ
صغير لافذة وضعها فوق مكتبه « يجب أن أكون جنرالاً » .. ا

ومع مطلع الصباح كل يوم ، كان كما يقال — يستقبلها في مَرَحٍ
سبياني ، وأيضاً في جِدِّ طفولي .. ويؤدي لها تحية عسكرية ، ويصرخ
« يجب أن أكون جنرالاً » وأياً ما يكون شأن هذه القصة ، فقد كان
جنرالاً .. وامبراطوراً ؛ وغازياً ؛ فاتحاً .

ولقد ذهب يقود بقرديته جيشاً لا يتعب ، ولا يسأم ، ولا ينهزم
حتى التقي أخيراً بالجنرال — ينائر — على حد تعبيره فجمدته ثلوجه .
وبدده صقيمه .. وحين كف الفرد نابليون عن العمل وتخلف عنه حظه
رجع التاريخ عن الطريق التي كان سائراً فيها معه . وعاد يلتمس طريقاً أخرى
هكذا تبصورتنا دور الفرد في مناصرة نابليون ..

● — وفي مستوى أعلى بتبدي لنا دور الفرد في رجل مثل «ماركس»
رجل حاد الذكاء ، إحصاري الإرادة ، كتب «رأس المال» فحرك
به المعرفة الإنسانية وغير اتجاهها ، وأثار في أعماق المحيط البشري مدّاً
ثورياً عالياً .

ومن المسلم به أن هذا الفرد بذكائه النفاذ ، بدأ يدفع التاريخ منذ
أرسل نذيره ، وهو بهذا يشير إلى دور الفرد في صنع التاريخ ، وبالتالي
في إنشاء الحضارة ..

● — وفي مجال السياسة يشرب أماننا رجل ملأ الدنيا وشغل
الناس ، هو « بسمارك » ..

هذا الألماني الداهية ، ماذا كان مصير ألمانيا ، والاتحاد الألماني ، بل
والتاريخ الألماني كله لو لم يظهر هذا الفرد المغمم ذكاء وحيلة .. والذي
يحمل إرادة لاتعرف التهييب ، ولا التردد ، ولا السجز .. »

x x

هذا منطقنا حين يهزنا دور الفرد ، ويجذبنا بريق بطولته ..
لكننا نعود فننهر بضياء آخر ، وننشىء منطقاً آخر - حين تناديننا
« الجماعة » كاشفة عن كفايتها وسلطانها .. عندئذ نتجه صوبها ،
ونكاد نزع الراية من يد الفرد ، ونسلمها إياها ..
فكل فرد مهما عظم دوره ، واتسعت كفايته ، ليس في التحليل
النهائي سوى ثمرة ييشته ومجتمعه

• • فسقراط - مثلاً - نشأ في مجتمع يتمتع بحرية سائبة في الفكر
والقول والعمل . مجتمع يمارس الفلسفة على نطاق واسع ، ومع هذا كُتمة
فراغ كبير بين تفكيره ووجدانه . فهو - أعني المجتمع - يتحدث في كل
شيء ، ويفلسف كل شيء ، ويتعقب بالفحص والتفسير كثيراً من
ظواهر الكون والحياة . بيد أن وجدانه يتخشع للأساطير وينحط من
الحجارة آلهة معبودة

إنه يحدد بيديه سامقة ، أن الأرض كرة ، وأن النرة تنطوى
على طاقة هائلة ..

ثم ينتقل من هذا الحدس الذكي إلى الخشوع الضارع أمام آلهة
الأولب الذين يتداول عنهم من أنباء النزاع والصراع والتنافس ما يضحك
ويثير .. ! والمجتمع يحس هذا التناقض ، ويتطلب من يحل عقده . أجل
يتطلب رجلاً ذكياً يملأ الفراغ بين عقل الجماعة ووجدانها .. أو بتعبير
آخر ، يزحف بعقل الجماعة نحو غريزة القطيع فيها ، وينزع من الخرافة
الأرض التي تقف عليها ؛ ويضع أمام كل أسطورة علامة استفهام ضخمة

وهكذا ظهر أقدر الناس على هذا العمل ، وكان سقراط ..

• • • — ونابليون .. ماذا كان نابليون ؟؟

إنه ثمرة حكومة الإدارة في باريس من جانب . ، والطبقة الوسطى
« البرجوازية » من جانب آخر .. لقد انتدبته حكومة الإدارة ،
كقائد عادي لحلة عادية .. فلما كشف عن كفاية عسكرية ثلاثم
أطاع هذه الطبقة وتستطيع أن تخدم أهواءها ، تلقت البرجوازية
الفرنسية ، وسلطت عليه الأضواء ، وتولته بكل وسائل الدعاوة ،
وصنعت له الأجداد التي جعلته بطلاً أي بطل : . ومن ثم ركب نابليون
ثبيج الشهرة وسُخِّرَتْ له كل قوى دولته فحُزب بها ذات اليمين
وذاوات الشمال .

• • • — وماركس

لقد التقى بشبابه في مجتمع ثائر متطلع .. فقاطمة « رينانيا » التي
نشأ بها ، كانت قد رحبت بجيوش فرنسا التي ستنتقد أهلها من الأقطاع ،
وتُجهز على السلطان المطلق الذي يميث به في الأرض فسادا ، الأمراء
الإقطاعيون . ولكنها بعد عشرين عاما قامت خلالها قسوة الفرنسيين
سيا . في نهب الضرائب من أهلها ، عادوا ييممون وجوههم شطر
« بروسيا » . ثم يماودهم الحنين مرة أخرى إلى فرنسا بعد أن أذلهم من
جديد الحكم البير وقراطى الاضطهادى في بروسيا :

وكانت الأفكار الاشتراكية تزحف .. بل كان شبح الشيوعية
— كما يقول لوفافر — يهدد أوروبا ويهيم في آفاقها .. كل هذا قبل
أن يخط « ماركس » سطوراً واحداً في الماركسية .

ولقد بدأ شاعراً ، يهوى الشعر ويمد نفسه ليكون أديباً ، وكان
عضواً في نادى الشعراء .. ولكن روح الجماعة التي يعيش بينها ،
وانطلاقها الثورى آتت ، والأزمات الاقتصادية الملاحقة ، والاضطهاد الومر
الذى سلكه غليوم الرابع ، كل هذا لوى زمام « ماركس » إلى الفلسفة
ثم إلى الماركسية نفسها .

هكذا ترفع لواء الجماعة ، ونجد من المنطق الذى يؤتق دورها ،
مثلا وجدنا من قبل ، المنطق الذى يُجَلَّى دور الفرد .

بيد أن وعينا لا يلبث أن يتجه نحو مسارٍ آخر ، إذ يبصر التسلسل
الواضح ، والوعى المستترّ فى حوادث التاريخ وفى حركته ، فينادى
بأن صاحب الدور الحقيقى فى تطور الناس وحضارتهم إنما هو التاريخ .

• • • — فردية سقراط ، ومجتمعه ، كاتا طاجزين عن إنجابه
وإبداع عبقريته لولا حركة التاريخ التى كانت قد بلغت بأثينا ، وبالفلسفة فى
أثينا مُستوىً طالياً يتيح ظهور مثل هذه الموهبة الشاخنة .

وآية هذا ، أن « سقراط » لم يكن يمثل مجتمعه . . بل كان أكثر
من ذلك ، يمثل الاستعداد التاريخى لهذا المجتمع .

أو بتعبير آخر . . كان يمثل الدور الحقيقى الذى يستطيع مجتمعه أن
يقوم به ، وإن لم يقم به فعلا لسبب أو لآخر .

ولكى نوضح هذا نضرب مثلا ببجيرة العرب فى جاهليتها .

إن الشكل الخارجى لتلك الجماعة ، كان يبعث على الظن بأنها لاتصلح
لنير رَعَى الإبل ، وقرض الشعر ، وعبادة الأصنام ، ومعاناة الرياح
الماوية عبر الصحراء .

ومع هذا ، فقد كان استعدادها التاريخى الذى لم يكن منظورا
ولا محسوسا ، يؤهلها لأعمال باهرة سامقة . . ولم يكد الرسول عليه

السلام يلبسها لسات هادية حتى انطلقت أسرع من الضوء في تحقيق المعجزات . . . ! !

كذلك كانت أمينا . . . كان استمدادها التاريخي مختلفاً عن شكلاها الخارجي ولقد أدرك هذا سقراط الذي وعى حركة التاريخ واستجاب لها .
صحيح أن مجتمعه هذا ، هو الذي أكرهه ملي نحو ما أن ينسحب من الحياة بجرعة من السم . . . بيد أن هذا الحكم نتاج الهوى الاجتماعي في أمة سقراط ، وليس نتاج الرشد التاريخي الذي ظهر فيما بعد ، وبعد أن أيقظه سقراط بموته أكثر مما كان يوقظه في حياته .

• • • — ونابليون كذلك ، ليس ثمرة شخصه ، ولا ثمرة مجتمعه .

بل هو الابن الشرعي للتاريخ .

قد يكون ابناً طاقاً ، فالتاريخ ينجب البررة والشريرين ولكنه على حال ، ابنه ، وثمرته .

والمنطق في تأكيد هذا ، يسير هكذا .

لقد سجل نابليون انتصارات هائلة عُرف بها وعُرفت به . . . وكان ناس زمانه وبعد زمانه لا يرون فوق خشبة المسرح سواء .

ولكن هل كان نابليون قادراً على براعته تلك لو لم تكن حركة التاريخ معه . . . ؟ ؟ كلا .

لقد كان التاريخ هناك ينتظر نابليون — أي نابليون — . أي أن

حوادث الماضي كانت قد انتهت في مسارها إلى نقطة تسمح بل تستحث قيام مناهض من نوع نابليون . . . والتاريخ كما ينبغي أن نعلم ، كالعلم .
لا يعرف الخير والشر ، ولا يقول هذا طيب وهذا خبيث . . . وإنما يعرف فقط ، هذا لازم لعمليات التطور ، أم غير لازم .
ولقد كان رُوح العصر يهتف بواحد من طراز « بوناپرت » ويُفتن به فتوناً شديداً .

كان التاريخ بحاجة إلى رجل يملأ أوربا ذعراً وقلقاً ، وينبث بروشها وامبراطورياتها الباذخة ، ويعمم بأية وسيلة مفاهيم الثورة الفرنسية ، ويوقظ في الجماهير روح التمرد والرغبة في التغيير .
ولهذا رأينا بعض البلاد التي وطئها غازياً تستقبله استقبال الفاتحين ، عن إخلاص وحب ، لا عن خوف ومُسايرة . لأنها كانت ترى فيه منقذاً كبيراً . . .

تُرى هل يقدر « نابليون » أن يعود إلى عصرنا هذا ١٩٠٠ ؟
أعني ، هل يستطيع أحدهما تكن مواهبه وقدرته على المغامرة وولعه بها أن يمثل دور نابليون اليوم ، يمشى في الأرض غازياً . . . يفطر بدولة ، ويتمشنى بأخرى ١٩٠٠ ؟

كلا . . . ولقد حاول هتلر أن يكونه ، فأنهى كزوبعة ضالة ١١ . . .
لماذا . . . ؟

لأن روح العصر مختلف .. وحركة التاريخ تتطلب نوعاً آخر من الرجال ، ومن الأحداث .. وهى — مثلا — تؤثر اليوم « غاندى » واحد ، على مائة ألف هتلر مجتمعين ..^١

• • • — وماركس :

ما كان نبوغه الشخصى ، وما كان مجتمعه بقادريه على منحه هذا الدور الهائل الذى قام به لولا الحدث التاريخى ..
ذلك أن التمزق الذى كانت تمنيه الرأسمالية ، كان لابد أن يجد من يكشف عن أسبابه الدفينة ، ويتنبأ له بمصيره .
تتخذ — الذى كان يرسل نذره ، وإرهاصاته ،
مر به ويرسم له طريق العمل الذكى الواعى الثابر
رلس « علامة اجتماعية » تحمل سمات مجتمعه وبيئتها
ب .. بل كان « علامة تاريخية » تشير إلى مقادير للتاريخ جديدة
ونسك أن تأخذ دورها .

• • • — وبسارك :

ماذا كان نبوغه ، ومجتمعه ، سيمطيانه ، لو لم تكن الظروف التاريخية قد حددت ساعة الصفر للاتحاد الألمانى .. وأسرت إلى
« بسارك » بميماده ١٩٠٠
ولقد اعترف هو بهذا اعترافاً واضحاً فى خطبة ألقاها فى الريخستاغ
الألمانى ، قال :

« ليس بوسعنا أن نتجاهل تاريخ الماضي ، ولا أن نصنع »
« المستقبل .. »
« وإن الناس ليبالغون في تأثيرى على الحوادث التى »
« عرفت — فقط — كيف أستغلها .. »
« ولكن لا يخطر ببال أحد أن باستطاعتى صوغ التاريخ »
« فما أنا بقادر على ذلك حتى بالاشتراك معكم . »
« صحيح أننا مما نستطيع مقاومة العالم ، بيد أننا لا نستطيع »
« أن نصوغ التاريخ وعلينا أن ننتظر حتى تم حوادثه »



هكذا نضرب الأمثال لوعينا الإنسانى حين يشغفه دور الفرد
فيؤمن به . ثم حين يشغفه دور الجماعة فيؤمن بها . ثم حين يشغفه دور التاريخ
فيؤمن به ، ومع إدراكنا الحق لدور الفرد ، والجماعة ، والتاريخ ،
وأيضاً مع احترامنا للوقفات التى وقفها التفكير الإنسانى عند كل منها
الفرد ، والجماعة ، والتاريخ فإننا نريد أن نتخطاها جميعاً ، ونجاوزها ..
معانين أن صاحب الدور الحقيقى فى كل تقدمنا وارتقائنا ، إنما هو الإنسان ..
أجل .. ليس هو الفرد .. ولا الجماعة .. ولا التاريخ .. ولكنه:
الإنسان .

وهنا يعود إلينا السؤال : وما الإنسان .. ؟ ؟

ولعل من الخير أن أعترف بالصعوبة التي أحسها وأنا أسور مفهوم هذا الإنسان الذي أعنيه .. ذلك أنني أحس أنه أكثر مما أعرفه .. وأستشرفه برؤيا الحدس ، أكثر مما أبصره برؤية العقل ولكن هذا لن يمنعنا عن السير معاً صوب اكتشافه .

وأود أن أذكر أولاً ، أن خلافتنا الفكرى حول دور كل من الفرد ، والجماعة ، والتاريخ ، إنما يتضمن الرغبة في مجاوزة هذه كلها إلى شيء أقرب إلى الحقيقة إن لم يكن الحقيقة ذاتها .. وذلكم الشيء هو الإنسان ..

فالحافز الحقيقى للذين يؤمنون بقيمة الفرد ، وينيطون به البطولة ، إنما هو فى الواقع ، تكريم الإرادة الإنسانية ..

والحافز الحقيقى للذين يؤمنون بالجماعة ، وينيطون بها البطولة ، إنما هو تكريم التضامن الإنسانى ..

كما أن الحافز الحقيقى للذين يؤمنون بالتاريخ ، ويضعون الزمام فى يده ، هو تكريم التراث الإنسانى ، والحركة الإنسانية .

فالإنسان هو الرؤية الحققة لنا فى عالمنا الإنسانى هذا ..

ونحن لانصاب بالقنوط من أمره ، واليأس من مستقبله إلا حين تغيب عنا حقيقته

وكأى من فيلسوف وعبقري تغشأ اليأس لهذا السبب .
فالأعريق حين رأوا التاريخ حلقة مفرعة ..

والرواقيون حين صاحوا في الناس : « لا تتوقعوا من المستقبل شيئاً » .. إنما ذهبوا هذا المذهب لأنهم لم يكتشفوا الإنسان ..
والفيلسوف الشاعر « جوته » حين يتنبأ بمستقبل لا يبدى الله فيه اهتماماً بالجنس البشرى ، ويرى من الخير أن يعيد الخلق من جديد ..
إنما يغلبه اليأس على هذا النمط ، لأنه لم يكتشف الإنسان

وأرسطو نفسه ، حين قال : « يا أحبابي .. ليس في الدنيا أحباب .. » ؟؟
إنما قالها في ساعات غم عليه فيها حقيقة الإنسان
وكل الذين يمزلون الإنسان ، وينسئون مكانه بين صفوفنا ، وطائنا ..
كثيراً ما يفترسهم التشاؤم والقنوط

ومن سجب أن الذين واجهوا الحياة بأوفى حظوظ التفاؤل والثقة
والاقتدار من الأنبياء ، والرواد ، وقادة الحق والخير .. كانوا على وجدان
ذكي بحقيقة الإنسان .

هذا الإنسان كيف نتعرف إليه .. ؟؟

هل هو نحن ؟ أم هو شيء سوانا .. ؟؟

أهو خارج عنا .. أم كامن فينا .. ؟؟

الحق أنى لأريد أن أعطيه معنى تجريدياً ، يفقده وجوده المادى العظيم .
ولكنى كذلك ، لأريد أن أحصره فى تلك المعادلة الرياضية التى
تجمله حاصلها لمجموعة من الكربون ، والنيتروجين ، والأوكسجين ،
والهيدروجين ، والكبريت والملح ، والحديد .. ؟

وأنى لأبدأ تعرفى إليه بملاحظة تطورنا البشرى الهائل

x x

● إنه ... أعنى التطور ... يمضى داخل سلوك مليء بالمتناقضات والعوائق .
ومع هذا تنجى ، نتائجه دائماً ، كما لو كانت مقدماتها على حظ عظيم من
الدقة والتناسق ، وكما لو كان طريقها مهذا متلاحباً متراًعاً بالخوافز .
ونضرب لهذا مثلاً نعيشه الآن كما عاشه أسلافنا جميعاً ففجته منا
الإنسانى ، يمانى من الأثانية فى كل مكان ..

الأفراد . يُقن كل فرد بنفسه ، ويضع قائمة مطالبه من الحياة ،
كما لو لم يكن هناك آخرون ينبغي أن يكون لهم منها نصيب .
كل فرد ، لا يكفيه أن ينال حقه ، بل يريد ما ليس له بحق ، بل ،
وحقوق الآخرين جميعاً .

والجماعات كذلك ، كل أمة وكل دولة ، بهما زعمت لنفسها من
مُثل طالية . تتجه بطريقة تلقائية صوب نفسها ، وشمار كل جماعة —
أى جماعة — هو « أنا أولاً : وأنا ثانياً ، والآخرون أخيراً »

وطبيعى أن ما تفضى إليه هذه الأتانية من أثره ونزاع ، وحروب ،
يجرب الجهود الانسانية ، ويصيبها بشر ما يمزقها .

ومع هذا ، فالخاصل النهائى لسكل تلك العمليات الرديئة التمسة ، هو
التقدم نحو الخير ، ونحو الحق ، ونحو المحبة ، والغيرية والسلام
أجل ، إن الطريقة التى يتحول بها الشر إلى خير لتبهرنى ، وأستشرف
من خلالها الإنسان .

حين صاح « البابا إربان » عام ١٠٩٥ فى مسيحي أوروبا « إن الله
يريد منكم أن تقاتلوا عن دينه » وقرع بصيحته هذه أجراس الحروب
الصليبية .

كانت صيحته ، وكانت تلك الحروب بكل أهوالها ، جسراً عبرت
عليه حضارة العرب والإسلام ، وحضارة اليونان التى كانت مع المسلمين
إلى أوروبا ، وتحولت رزايا الحرب إلى مكاسب تفوق كل حساب وتقدير .
كما كانت سبباً حاسماً ومباشراً فى الإقطاع هناك

وحين اكتسح أوروبا عام ١٣٤٨ وباء الموت الأسود ازدرد الآلاف
والملايين فى شراهة ماحقة . . ولكنه سرعان ما تكشّف عن خير
منه . فقد خلق الأحداث التى كانت سبباً مباشراً فى إنهاء عهد الرقيق
ويدفع كهنة أورشليم بالمسيح إلى صليب كبير فيكون هذا إيذاناً ببدء
عجده وخاوده كلاته .

ويأتمر الأشراف في قریش بمحمد ليقتلوه .. ويضطرونه للرحيل عن
بلده وداره .. فتتجول هذه المحاولة الظالمة القاسية إلى تاريخ يتسع لحضارة
تتلاءم ما بين الشرق والغرب ، وتدوى في جنباتها دعوة القرآن ..

هنا ، الملح وجود الانسان ، وأتصوره مضموناً حياً لكل إمكاناتنا
النظيرة ، ولكل أغراض وجودنا — يقود خطانا ، ويمسطنع من آفاتنا
مزية ويمسرجا .

* *

• — وأبدأ تمرُّني إليه كذلك بملاحظة خيالاتنا ..

كل خيالاتنا المضعكة عبر الأجيال ، تحولت إلى واقع رشيد أكيد
تخيّلنا يوماً أن نظير .. واصطنع بمعضنا في سذاجة أجنحة ، وحلق
بها بضع ثوان ثم هوى ..

وضحكنا يومها ، وسخرنا وتندرنا .. وإذا الخيال الساذج يتحول
إلى واقع ياله من واقع .. !!

وتخيّلنا أن نركب البحر ، ونأخذ طريقنا فيه سرّياً ، فألقى بمعضنا
في مجرى ماء بجذع شجرة واحتصننه ، وإذا بجذع الشجرة يسير
سفننا كالجبال ، ويسخر البحر لنا ، كأنه يابسة ذلول !!

وتَخَيَّلْنَا « المدن الفاضلة » فإذا هي تأخذ طريقها إلى الواقع على
أتم نسق ، وفي أحسن تقويم ..

وفي كل شيء كان خيالا بعيد المنال .. ثم صار حقيقة ، أسأل نفسي :
كيف حدث هذا ، وما معناه .. ؟؟

ومن الذي كان يتخيل .. نحن .. أم الإنسان .. ؟؟
وأتصور الإنسان كما لو كان « المضمون الحى » لكل تجاربنا
وتصوراتنا ..

أجل . أتصوره قد جاء الدنيا مُزوَّداً بكل تصوراتهِ .

وأحسب الأمر سار على هذا النمط .. فحين ودَّع حيوانيته ، وبدأ عصر
إنسانيته ، كان يحمل معه حصيلة كبرى من التجارب والمشاهد والمعاملات
المائلة المقعدة التى شهد تركيبها جزء فجزءاً .. والتى التقطها جميعاً
« لآشُورُهُ » . واحتفظ بها فى قراره المَكِين ..

وإنَّ أقصى نقط انحناءه فى الماضى . ، لتشير إلى أقصى نقط كماله
فى المستقبل .. وإنه ليدفع كل القوى التى ملء يديه لتحقيق نهج يكافئ
يكون كاملاً ومفصلاً فى فطرته لآوعيه ، وإن كان عقله الواعى
يكشفه شيئاً ، فشيئاً . لقد عاصر الإنسان قبل أن يى نفسه ، كل
أشياء الطبيعة حواليه ، رآها ، وهى تتكون ، وهى تنحل . وهى تتركب ،
وبَصُرَ بخصائصها ، واستقر كل هذا فى باطنه .. فلما بزغ فيه العقل

تحرّكت فطرته لتعبر عن نفسها .. بل لعلّ العقل ذاته كان الأداة التي
فجّرتها طبيعته المزدحمة الملائى لتعبر به عن نفسها ، ولينقل إلى العالم
الخارجى أسرارها ومضمونها .

فإذا بسطنا أيدينا اليوم إلى عُشب وقلنا : إنه شفاء للكبد ، فليس
هذا إلا لأن الإنسان السكّام فينا قد زامل هذا العُشب من عهد قديم .
وإذا أشرنا إلى شلال يتحدّر ماؤه الهادر الصخّاب ، وقلنا :
سنؤكّد من هذا التدفق كهرباً .. فأيضاً ، لأن الإنسان العائش فينا أبصر
هذا المشهد على الطبيعة ذات يوم وأبصر البرق والضياء يندفغان من
الأمواج المتقاذفة في عُرام وجبوت ..

لما عن الطائرات ، وحاقنا في جو السماء بأجنحة ،
لن تناهت في البساطة ، فسيكون وراء هذا ، الإنسان الذى
.. غيّر تطوره السحيق زواحف ترحف على الأرض إلى جواره ،
ونجاة ، وبعد محاولات — فى عقله الباطن كل أسرارها — رآها تبسط
جناحين ، وتذهب صاعدة فى السماء .. ؟؟

أى أن ذاكرته تسترد اليوم على نحو ما ، بلايين المشاهد والتجارب
التي عاصرها وعاشها مع الطبيعة خلال تطوره المديد الممعن فى الطول
والبعد .. ويقول عقله الواعى بطريقة ما ، فضّ الأبهام والغموض عن
تلك التجارب الراسية الراسخة ...

وقبل أن ننصرف عن هذه الكلمات ، كما لو كانت وها طريقا .
علينا أن نتذكر حقيقة مماثلة تتكرر كل يوم ، وراها العلم بعينه ويلسها
بيده ..

تلك هي الطريقة التي تتطور بها الأجنة في الأرحام .. فوقائع
التطور البيولوجي للإنسان ، والتي استغرقت بلايين السنين منذ كانت
الحياة خلية .. حتى صارت إنساناً .. هذه الوقائع كلها يركزها
الإنسان ، ويستعيدنها ويكررها مع كل جنين .

فالجنين — كما يقول علماء البيولوجيا — يبدأ خلية ، ثم يأخذ
شكل الحلقة . ، ثم هيئة السمكة حيث يتنفس بخياشيمه ، لا برئته ..
ثم يصير حيواناً ذا أربع ، له ذنب صغير ، وينطى جسمه الشعر .. ثم
يصير إنساناً .. !!

نفس المراحل التي تقلب الإنسان خلالها في بلايين السنين ، يستعيدنها
في ستة أشهر لا غير ، وبأصرار عجيب لا يفلت منه جنين ..

وهنا ألمح الإنسان الوجود في « لا وعيه » يفضي إلى الإنسان
الوجود في « وعيه » لينتجبا مآ ، الإنسان المتفوق على وعيه .. !
نحن نقول : إن العلم يغير وجه الأرض ، ويميد كشف الحياة ..
وهذا حق .. بيد أن العلم نفسه لا يوجد إلا بمقدار ما يريد الإنسان ..
ولا تسرى الحركة في آلة إلا بمقدار ما يضع الإنسان فيها من حركة ..

• — وأبدأ تعرف إلى الإنسان كذلك ، بملاحظة العبقريّة الإنسانية التي لا أجد لها سبباً أى سبب ، لا في حركة التاريخ ، ولا في تيار الجماعة ، ولا في إمكانية الفرد

انظروا ...

« بهوفن » الأصم ، ينشئ وهو قافد لأهم أدوات الفنان ، ألعانة ، تتخطى كل مناسيب العبقريّة والخلود .. ا

و « غاندي » .. ذلك النحيل الضامر ، المادى في ثقافته ومظهره ، يتحوّل بمُرّيه ومغزله إلى قوة لا تغلب .. ا

و « الحلاج » يحتضن عقيدة ، يُصاب من أجلها وتقطع أوصاله على خشبة الصلب ، وتُبتر أعضاؤه عضواً عضواً .. ثم لا يتخلّى عن عقيدته فحسب بل يبارك قاتليه ويقول عبارته المأثورة : « اللهم اغفر لهم فإنهم ما فعلوا بي هذا إلا غيرة على دينك » . ا

و « هنرى توماس باكل » الذى قضى عمره كله عابلاً مُوثّقاً ، يتعلم سبع عشرة لغة ، ويفكر بها جميعاً ولا يستطيع — كما وصفه هكسلى — أن يرفع رأسه من كثرة ما كانت تحمله .. ا

و « جماعة بدائية من العرب » تقطن صحراء قاحلة تحتضن ديناً رَشَداً ، وتنشئ به حضارة عجيبة .. ا

و « شعب » مقرر ذليل جائع فى أصقاع روسيا القيصرية ..

يتحوّل بصورة أذهلت « لينين » نفسه مهندس الثورة ومنظمها ، إلى
طوفان بشرى داهم يشبه الأساطير

هذه المبقرية التي تظهر هكذا مكتملة في الأفراد وفي الجماعات . .
من وراءها . . ؟ إنه الإنسان . .

سنجد وراء الانطلاقات الكبيرة للجماعات أسباباً تاريخية قطعاً . .
ولكن مبقرية الانطلاقة المتمثلة في امتلاكها لكل عوامل الفوز ، شيء
لا يمكن أن يجيء إلا من إرادة الإنسان . .

عندما قيل لـ « لينين » إن ثورة عاتية ، ملأت أرجاء روسيا ،
لم يصدق ، وظن في الأمر خدعة . . ذلك أن التاريخ يُزجى أسباب
الثورة ، أو الحركة الاجتماعية الكبيرة . أما المبقرية التي يُقيم بها العمل
التاريخي نفسه إقاداتها الإنسان . .

والظروف الخارجية لا تصنع كل شيء . .
والمبقرية الإنسانية التي أقول إنني أتعرف بها على الإنسان ، تدمم هذا
فالثقل الحاسمة في تاريخنا تتمثل في بضع قوانين هامة اكتشفناها
● كروية الأرض وحركتها . .

● قانون الجاذبية ...

● نظرية النسبية ...

● نظرية أصل الأنواع ...

هذه الكشوف غيرت معالم تفكيرنا ، وحددت طريق حضارتنا ،
وأسمت في كل ما جاء بعدها من إبداع واختراع ...

فهل نبحث عن سرها في الظروف الخارجية أياما كانت هذه الظروف ... ؟
حاولوا إن شئتم ... أما أنا ، فلا أجد سرها في شيء سوى الإنسان
وبعد هذه الأمثلة والتهويمات ، أستطيع أن أصوغ الكلمات التي
تعرّف هذا الإنسان وتصور مفهومه
أستطيع أن أقول :

إنه شيء يشبه « المطلق » في عاله ، وأرضه ..

إنه « الوعي الكامن » في نوعه كله ..

أنه شيء يشبه عالم « المثل » عند أفلاطون ..

فالإنسان في هذه الأرض ، هو المثال : . والأفراد ، والجماعات ،

والتاريخ .. كل هذه ، هي الصور والانعكاسات ..

وهو بداية التطور الحى كله ، وقته ..

بدايته ، لأن « الأميا » التي دبت فيها الحياة لأول مرة على ظهر

الأرض ، كانت .. على نحو ما .. تتضمن الإنسان ..

وقته . ، لأن الإنسان عندما نَحَى جانبا كل الكائنات الحية التي

كانت تسايشه وتسابقه ، وتفرد بالسيادة ، تمثلت فيه قوة التطور الحى في

كوكبنا هذا .. بيد أنه « قة » نامية . لأنها حية .. وإنه لذهاب

إلى أعلى دوماً حتى يحقق تيمات الأمانة التي حملها
لقد بدأ قانون الجاذبية مع بدء السموات والأرض والكواكب ..
ولم نكتشفه نحن إلا منذ أقل من ثلاثة قرون .. ولم يكن جهلنا به
يعنى انعدام وجوده ، كما أن جهلنا به لم يعطل عمله ..
والإنسان هو (القانون) الذي يحكمنا نحن البشر ، وينظم حياتنا
الإنسانية ، ويرتب مقدماتها نتائجها .
ولقد قلنا إن الطبيعة الإنسانية لم يكتشف منها إلا القليل ..
ولسوف نكتشف الإنسان فينا شيئاً فشيئاً حتى يتجلى ذات يوم كماله
هذا هو الإنسان ، بالنسبة لخالقه ، وأرضه ..
أما عن ملته بيارثه وخالقه ، فعلينا أن نتقبل في حُبور كلمة الدين فيه
إنه ابن الله ، فيما عبر المسيح ..
وخليفة الله ، فيما قال محمد ..
وإن الإيمان بهذا ، لا ينقص من قدر الإنسان بل يرفعه عالياً ..
فالمواطن في دولة عظيمة ، يزهر بأنه من رعاياها ومواطنيها ،
ويستمد من عظمتها ثقة واقتداراً .
والإنسان ، ليس « مواطناً » في عالم الله وحسب . بل هو
خليفته العظيم .

وهذا الإنسان ، هذا « القانون المميم » هو أصل القوانين
الموضوعية في دنياه ، ومن ثم فهو فوقها جميعا ، ولا يتحكم فيه
منها شيء . . .

وحسبنا أن نسأل أنفسنا :

لولم يوجد الإنسان على الأرض ، أكانت القوانين الاجتماعية
ستوجد . . ؟

بالبداهة ، لا . .

كانت القوانين الطبيعية ستمضي في طريقها ، والعمليات البيولوجية
ستستأنف سيرها . . أما القوانين الاجتماعية ، فمن كان سيوجد لها ،
لولا الإنسان . أو لولا بديله . . ؟

وهذا يعني أن الإنسان سيد وجوده ؛ وسيد تاريخه . .

بمعنى أنه سيد وجوده . . ؟

وبمعنى أنه سيد تاريخه . . ؟

لنبدأ بالأولى . .

قلنا : إن الإنسان يحمل طبيعة ملأى بالتصورات والأمرار . .
وأنه أخذ على كاهله ، أن يخرج خبء الطبيعة حوله .

وهو بهذا ، لا يعمل بقوى سحرية . بل بقوى منفاورة وإعيرة . .

وقلنا : إنه ليس معنى مجردا . بل هو مضمون حتى لكل

إمكانياتنا وتساميننا . . وذات واعية حالة فينا جميعاً أفراداً وجماعات .
وكل عمل من أجل تكريم الإنسان ، وبثث فرص اكتماله .
لن يكون له موضوع سوانا ، نحن البشر . .
وكل إساءة إلى فرد إنساني واحد ، تعنى الإساءة إلى الإنسان
في مجلى من مجالى ظهوره .

والإنسان الميم وجهه شطر السكال العظيم ، لن يبلغ هذا إلا بقدر
ما تبلغ الجموع البشرية من نبوغ عقلى وأخلاقى ، واجتماعى ، فسلما
كثرت الجموع الممتازة المتفوقة المسيطرة على مصيرها ، كثرت معها
فُرص الإنسان فى الظهور ، وقرب يوم اكتماله .
وسيادة الإنسان على وجوده ، هى السبيل لتحقيق هذا النبوغ
للجموع .

والوجود الإنسانى مُحكم البناء بشكل فذ ، وهو يرفض التصدع
والانفصال . .

إنه ليس حلقات منشورة ، ولا ذرات تائهة . بل وحدة هائلة
مكتمة يتوسطها الإنسان .

فالفرد فى حقيقته ليس فرداً . . وإنما هو « تركيب اجتماعى »
أو بتعبير أهدى سيلا ، هو « تركيب إنسانى » .

ينقل لنا العلامة الأستاذ « أميل بريه » عن العالم النفسانى

الكبير « بلدوين » هذه الفقرة مدللاً بها على أن الفرد لا يعرف نفسه ، ولا يشعر بها إلا عن طريق شعوره بالمجتمع أولاً . . . يقول (١) :

« لقد اكتشفنا أن الطفل لا يشعر بوجوده الذاتي »
« إلا بعد معرفته بشعور الآخرين ؛ فهو لا يدون »
« في نظره مركز الردود أفعال ترتبط بمحاجاته الخاصة . . »
« وهم النموذج الذي يتخذه أساساً لتصوير شعوره »
« الخاص . . وبعد هذا بفترة طويلة ، يصل الطفل »
« إلى مرحلة يتخيل فيها شعور الآخرين طبقاً لما يشعر »
« به في ذات نفسه . . . »

كذلك ينقل لنا عن عالم آخر هذه الفقرة :

« إن الامتزاج بين الشعور بالآخرين والشعور بالذات »
« في نفس الفرد ، يستمر طوال الحياة . . وإنا نعدل »
« أفعالنا بناء على تلك الفكرة التي نكوّنها لأنفسنا »
« عن آراء الآخرين فينا . . »
« فشعورنا الذاتي ، يشبه مرآة تنعكس فيها صور »
« الآخرين . . »

(١) كتاب « اتجاهات الفلسفة المعاصرة » .

فإذا كانت صلة الفرد بالجماعة تأخذ هذا الترابط الوثيق . . .
فإن صلة الجماعة بجماعة أخرى تقوم على نسق مماثل .

أى أن المجتمع — أى مجتمع — ليس دائرة مغلقة ، ولكنه
موجة فى تيار . . . وكل جماعة من البشر فى زمان ما ، ومكان ما . . .
إنما يتأقون من التيار البشرى كله تأثيرا مماثلا لهذا الذى يتلقاه الفرد
من الجماعة .

من أجل هذا آثرنا ألا نقول مع علم الاجتماع إن لكل فرد
« تركيباً اجتماعياً » وقالنا : إن لكل فرد « تركيباً إنسانياً » . . .

وحين أكون كفرد ، مركباً هذا التركيب الإنسانى ، وأهل
ميراث الإنسان الذى هو حقيقتنا الكبرى فإن هذا يكشف من الخيرية
العظيمة التى أحملها بين جنبي . . . هذه الخيرية التى يشير إليها الحديث
النبوى الفائل : « كل مولود يولد على الفطرة » . . . بيد أن فرديتى
هذه لا تمنى الانمزال ، ولا الوجود الشخصى ، لأننى تركيب « لاعنصر »
ونحن فى الحقيقة ، تسلم ذواتنا من النوع ، فى ذات الوقت الذى
تسلمها فيه من آباءنا وأمهاتنا . . .

أجل . . . إن الآباء والأمهات ، يمنحوننا خصائصنا الشخصية . . .
والنوع ، يمنحنا خصائصنا النوعية أو البشرية . . .

وفى تكوينك الذاتى ، وأنت نقطة ، أدلى النوع بدلوه ، واقترحم

نسيج البذرة الأولى واستقر فيها . . فإذا ذهبت تعيش في وجود منفرد :
ففي أي وجودٍ بك ستمعيش .. ؟؟

وجودك الشخصي . ، أم وجودك الكلي . . ؟؟

إنه قد يبدو لك أنك تحيا في وجود حقيق حين تجنح إلى فرديتك ،
وتخرج خبء ذاتك الواحدة . . بيد أنك آتئذ ، لم تزد في الواقع على أن
أحدثت انقساماً في ذاتك ، إذ حاولت أن تجعل مركز الثقل
في أحد شقيها .

أجل . . إنك آتئذ تحاول أن تنشق الشعرة نصفين . . !! وإذن ،
فكان كل فرد من الوجود ، هو الوجود الإنساني ، لا الوجود الشخصي . .
لأن الأول فضلاً عن كونه يتضمن الثاني ، فهو — قبلاً — مجالنا
الحيوي الأوحـد .

لا بد أن يصل كل خطوطنا بالإنسان ، ونكون دوماً على استعداد
لاستقبال مشيئته والسير معه .

فالخير الإنساني ، كامن في النوع الإنساني ، وكلما وثق الفرد به
بوشائج ، ازداد غرماً منه ، وارتفاعاً به . .

ليس معنى هذا أننا نقول للفرد . ، لكي تكون نفسك ، امتنع
عن أن تكون نفسك .

إنما نقول له : امتنع عن أن تكون بعض نفسك واحذر أن تنشق
على ذاتك ..

إن في تكوينك « خلايا » ورمتها لك البشرية كلها ، وهي تأخذ بك دائماً إلى موكبها .

وتجربتك التي تبدولك فردية .. هي قبل هذا اجتماعية ، لأن المجتمع أمهم في صنع ظروفها .. ، وإنسانية ، لأن طبيعتك التي مارسها تحمل أقباساً من التراث الإنساني جميعه .

ولندرك جيداً ، أنه في الوقت الذي نحاول فيه المروق من المضمون الإنساني العام ، أملأ في المثور على أنفسنا ، نفقد أنفسنا .

إن حياة الجنين وأطوارها في الرحم تؤكد أن كل فرد يحمل الطابع الإنساني كله مركزاً ، أروع تركيز .

فإذا كان الإنسان يكرر تطوره البيولوجي في كل فرد على النحو الذي سبق ذكره ، فإنه أيضاً يُحْمَل كل فرد تراثه ، ويفرغ فيه طبيعته . ويجذبه إليه بأوثق الرى حتى لا يكون شاة قاصية تتخطىها النئاب . وحتى لا ينفدغه القلق الوجودى ، ولا يرفع راية التسليم أمام مشكلة المدم ، وحتى لا يمجز ولا يفتى ... !!

الوجود الإنساني إذن ، هو عالمنا الأمثل والحق . وبه يكون الإنسان سيد وجوده . وهذا الوجود لا يخلق نفسه . بل تخلقه . ولا يجرى رخاء ، بل نمائيه . بيد أسما مائة انبثاء الظافر الذي يره طبقاً فوق طبق . لا مائة الكس . التي تهاوى أقباس الـ فوق رأسه .

وفي الوجود الإنساني الذي يشمل الحقيقة الخارجة كلها ، لا نتجّبها
خية الرجا في بحثنا عن الوجود لأن فرص تحقيقه وافرة وباهرة .
وأيضاً ، لا نخشى العدم ، لأن القضية هنا ليست قضية فرد منفصل
عن حقيقته . بل قضية الإنسان في دوره العظيم الذي لا منتهى له .
إن الانكباب على الوجود الفردي ، عزل للجهد البشري ،
واحتباس له في قوقعة معتمة . بينما الحياة داخل وجود إنساني تزكو
الفردي ، وتتلأ يديه بقدرة لا حدود لها . وبه وحده يكون الإنسان
سيد وجوده .

x x

والآن ، ما معنى أن يكون سيد تاريخه . . ؟
إن المفهوم التقليدي للتاريخ قد ولى مدبراً .. ولم يعد التاريخ مجرد
سجل للأخبار ، والبطولات ، والجرائم .. كالم يعد ذلك المسرح
القديم لناورات السياسة وغزواتها :
إن التاريخ بمفهومه الصحيح ، هو الحركة الإنسانية والنشاط
الإنساني قاطبة . : هو الوعي الإنساني في تحركته الدائمة .
وقوانين هذه الحركة تقع تحت سيطرة الإنسان وليس العكس .
وكل مرحلة تاريخية تأخذ مكانها خلال العمل الإنساني هي مخلوقة

للإنسان ، وليست خالقة .

والحركة التاريخية، ليست أكثر من مظهر زمني للحركة الإنسانية .
والحدث التاريخي ، لا تُنتجبه الضرورات التاريخية ، بل الضرورات
الإنسانية . . لأن الإنسان هو القانون الثابت الذي يجعل التاريخ عملاً
واعياً وهادفاً .

ومن ثمَّ فالإنسان لا يخضع لأية حتمية تاريخية إلا إذا اعتبرنا :
التاريخ قدراً إنسانياً ، يصوغه الإنسان نفسه ، ثم يرتبط به عن
طريق قوانينه التي يلتزمها ، ويحترمها . . أما دون هذا ، فالتاريخ
كعمل إنساني ، هو الذي يخضع لحتميات إنسانية تقتضيها طبيعة
الوجود الإنساني ، ووظيفته .

وإذن فالتاريخ عندنا — لا يمثل التطور التدريجي لفكرة الحرية

كما يرى « هيجل »

ولا يمثل التطور التدريجي لملاقات الإنتاج . ، كما يرى
« ماركس » . .

وإنما يمثل التطور التدريجي لظهور الإنسان . .

فالإنسان يُخرج خبثه ، ويحقق ذاته ، ويسير عبر الزمن بآماله وأعماله
لينجز أغراض وجوده التي إن كان لها ، منتهى فهو بعيد . جداً بعيد .
وهذه الرحلة السكادحة الداهية التي يقطعها خطوة خطوة .

هذه الرحلة بكل علاقاتها ، وعللها ، ونتائجها ، وحركتها ، وإصرارها
هي التاريخ . .

والتاريخ إذن ، ليس قدرًا طارئًا ومفروضًا على الإنسان . . وليس
حتمية غيبية تتحكم فيه بل هو وعيه المدرس ، وعمله المحكم ، وحركته
المنظورة .

يقول ماركس وأنجلز في مؤلفهما « الأسرة المقدسة » .^(١)

« يقول المثاليون صنع التاريخ كذا . . وسوف يحكم »
« التاريخ بأن . . والتاريخ لا يرضى بكذا . . »
« على حين أن التاريخ لا يصنع شيئاً ، ولا يريد شيئاً ، »
« وهو يرضى بكل شيء . . وعلى حين أن الإنسان هو »
« الذى يصنع ، ويحمي ، ويريد ، ويناضل . . . »
« والتاريخ لا يستخدم الناس لغاياته الخاصة . . . »
« والتاريخ لا يعدو أن يكون الإنسان الذى يتابع أهدافه »
« وغاياته . . . »

هذه كلمات فاصلة فيما نحن بسبيله ، وكل شرح لها فضول وتكرار .
وإن تحرير الوعي الإنسانى من الحتمية التاريخية ، وتحريره من
الحتميات جيمًا ، ليشكل ضرورة قصوى .

(١) كتاب « كارل ماركس » تأليف لوفافر

وكما وضعنا في اعتبارنا ، أن الإنسان وحده — في أرضنا هذه — هو القِيَمَة .. وكل ما عداه مما نعتبره قِيَمًا ، ليس أكثر من تعبيرات ملائمة تعكس حقيقة الإنسان ، وجوهره .

أقول كما وضعنا هذا في الاعتبار ، ربحنا الإنسان ، وربحنا أنفسنا ، وأفرغنا في دورنا حظًا أكبر من الفهم ومن الذكاء .. قد أبدو مبالغًا في تمجيد الإنسان .. ولكني لن أكون مبالغًا في تصوري لحقوق سيادته .. هذه الحقوق التي كلما ازداد ممارستها لها ، ازدادت سيطرته على بيئته ، وفقدت الظروف الموضوعية قدرتها على التحكم فيه ، وفي تاريخه ..

وحقوق السيادة هذه ، تقتضي أول ما تقتضي أن يهبوا الإنسان المكان الأول والأعلى بين شتى الظروف المستبعدة ، والتناقضات المتداخلة ، وأن يكون زمام المبادأة في يده دوماً ، وفي غير تحفظ أو شروط .

وهذا ليس أمراً نمنه عليه ، ولا تبرُّعاً نُسقطه في كفه .. بل هو حقه الطبيعي الصميمي ، الذي لا يشكل عرضاً من أعراضه .. بل جزءاً من صميم جوهره ، وصميم ذاته ..

يجب أن يعلو دائماً ويسود ، ذلك البدأ القائل « لقد خلُق السبب من أجل الإنسان .. ولم يخلق الإنسان من أجل السبب » ..

فكل أشياء حياتنا الإنسانية .. وكل القوانين الاجتماعية ،
والظروف التاريخية ، كل هذه جُمِلت للإنسان ، ولم يُجعل الإنسان لها ..
وإذن ، فلا ينبغي أن يُضَيَّح من حقوقه ولا من حريته ، ولا من
سيادته بشيء لها ..



هكذا نتصور سيادة الإنسان على وجوده ، وسيادته على تاريخه .
ومن خلال سيادته هذه ، نبصره وهو يشيد حضارته ،
ويؤسس عالمه .

فلا إنسان كما قلنا ، هو مادة حضارته ..
ليست الأفراد ، وليست الجماعات إلا بمعنى أنهم متجلى ظهور الإنسان
ومركز وجوده ..

لقد قامت حضارات كثيرة أسميناها بمناطق نشاطها ..
حضارة الأغريق ، والرومان ، وأشور ، والفرس ، والعرب ،
والفراعنة ...

ونقول اليوم : إنها بادت .. وإنها لكذلك فعلا ، لو كانت من
عمل طوائف وجماعات ..

أما الحقيقة ، فهي أنها لم تَبْدُ ولم تكن .. ولكنها تحولت
ونمت ، وتطورت ..

ذلك لأنها من عمل الإنسان . والإنسان صامد ، وثام ، ومتطور
وبجالي تلك الحضارات جيماً من عمران ، وكشوف ، وصناعة ،
وعلم ، لم يدركها الدم وإنما تطورت وصعدت ..
فتحنيط الموتى وعالوم الفلك ، وفن العمارة في حضارة الفراعنة .
وكشوف الطب ، والكيمياء ، والطبيعة في حضارة العرب ..
والفلسفة ، والديمقراطية ، والفن ، في حضارة الإغريق .
والقانون ، والعمارة ، والأدارة ، في حضارة الرومان .
ومثلها في حضارة آشور ، والفرس ..

والفلسفة ، وصناعة الورق والبارود في حضارة الصين — كل هذه
لم تَمُتْ ، وإنما تطورت . لأنها تسير عبر الإنسان ، وتتطور خلال
مساره الصاعدة .

لقد أعطاه الله طبيعة مُطِيعَة ، باحت له بأسرارها ، ووضعت نفسها
وقوانينها في خدمته .

بل لقد سخر الله له الشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ لأمره ..
ولهذا ، فهو — أي الإنسان — أحكم وأفطن من أن تضطرب

الأمر في يده .. أو تنهاوى عمارته وحضارته

إنه لا يعمل بقوة ساعده . فلو كانت قوة المضلات هي الفيصل
لسبقته الحيوانات المهولة التي هي أشد منه بأساً ، وأوفى قوة .
ولا يعمل بكثرة أعدداده .. وإلا لسبقته أيضاً الحيوانات والحشرات
ولكن بطل الحياة هذا .. الذي شق صفوف جميع الكائنات
في كوكبه . ، وانطلق من بينها ساعداً .. راشداً .. ماجداً ..
إنما يعمل بأمن مأوئيه ، وأفضل ما أعطى ..
أتمرفونه .. ؟؟؟

إنه عقله ، وفكره ..

ألا وإنه لخم علينا أن نقف معه في فكره ، لننظر ، ونفقه ، ونعرف .
فلنفعل ذلك الآن ..

الإنسان سيذوقه

حبا الإنسان طويلا على يدي بارئه . . وتلقى النفخة الكبرى من
روح ربه ، وبزغ عقله ووعيه ، فأعان الله رُشدَه ، إذ رآه يتقبل في شجاعة
وغبطة ، الأمانة التي عُرِضت من قبل على السموات والأرض فأبَيَّن أن
يحملها ، وأشفقن منها . .

ومن ذلك الحين صار الإنسان سيد كوكبه . . وكتب على نفسه ،
أن يحول أحاسيسه الغامضة ، ومبهمات الباطنة إلى وعي ، وحركة ،
ومستقبل .

كتب على نفسه أن يحول غرائزه الحيوانية إلى حاجات إنسانية . .
كتب على نفسه أن يحول أسرار الطبيعة المضمرة إلى عالم يكتشفه
وبشيدته .

وامتلك -- على حد تعبير هيجل -- عريضة خلق ذاته . . ومنذ
وَعَى نفسه ، شغل أمران ، كان لا بد أن يشغلاه .
أولهما : معرفة حقيقة جوهره ومصيره .

وثانيهما : السيطرة على العالم الخارجي وتسخيره .
ولقد سبق أن قلنا : إنه عاصر الطبيعة ، ولَقَفَ مشاهدتها ، بفريزة
واستودعها عقله الباطن . . ولما بزغ وعيه ، وأنحلت عقدة لسانه
بدأ يترجم دخيلته العميقة ، وينقلها . .

بعض تلك التجارب والمُشاهد ، استقرت في أعماقه مينة مُيسرة . .

فلما أراد أن يستعيد لها ظهرت الأداة المناسبة ، وكانت — العلم ..
وبعضها كان مبهما وغامضا ، يحتاج إلى بث الأسئلة الكثيرة ،
وتقليب وجوه الاحتمال والنظر .. وظهرت الأداة الملائمة لهذا ، وكانت
— الفلسفة ..

وبعضها كان خارقاً ومعجزاً .. وظهرت الأداة الملائمة له
— وكانت — الدين .
وعن طريق اللغة ، مضى الفكر الإنسانى يملأ كل هذه المجالات
وينفذها .

وبالدين والفلسفة ، شرع يحاول معرفة جوهره ومصيره ..
وبالعلم ، مضى يسيطر على العالم الخارجى كله .
بهذه القوى إذن — الدين ، والعلم ، والفلسفة وما انبثق منها ،
كالفن ، واللغة ، والأدب — يبر الفكر الإنسانى عن ذاته .. .
تماماً .. مثل الطاقة فى الطبيعة تمر عن نفسها بقوى كثيرة كالكهربية ،
والغناطيسية ، والكهرومغناطيسية ، والحرارة ، والإشعاع .
وكما أن هذه القوى جميعاً ، ليست فى التحليل النهائى لها سوى
الطاقة نفسها .. فكذلك القوى الفكرية ليست فى تحليلها النهائى
سوى الفكر ذاته .

ونحن نعى بالفكر هنا — التجربة كلها التى عاشها الإنسان مبر

تطوره الطويل ، ولا يزال يمشيها بكل ما فيها من لا شعور ، وشعور ، وإدراك ، وإلهام .

ولكن ، ما معنى أن الإنسان اكتشف الدين ؟
معناه أنه اهتدى إليه ، ذلك أن اكتشاف شيء — أولاً — يعني سبق وجوده .. فاكتشاف الجاذبية ، وحركة الأرض يعني أننا لم نخلقهما ، وإنما اكتشفنا وجودهما ..
ومعنى اكتشاف الإنسان الدين ، اكتشاف حاجات دينية عميقة في نفسه ، ورغبتها وأنجبها أحاسيسه العارمة المحتشدة خلال تطوره .
وحين نبصر جيداً ، هذه الحاجات : نرى أن الدين يدعو الوجدان البشري لنفض يده من الدين على خطأ كبير .
ذلك أن الدين ، ليس هو تلك الطقوس ، والمشاهد ، والشعائر فحسب إن هذه كلها هي الشكل الخارجى للدين .
أما لباب الدين ، وحقيقته ، فهو التطلع إلى اللانهاى .. أو على حد تعبير « روبرت سبنسر » :
« الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ، ولا المكانية ، هو العنصر الرئيسى في الدين » ..

والإيمان بهذه القوى .. أو على الأقل ، الرغبة في التعرف إليها ،
شيء لا يشكك فيه الإنسان ، وإنما ينبعث تلقائياً من تجربته ونفسه ..
والعلم في كثير من انتصاراته لا يزيد هذا الإيمان ، أو هذه الرغبة
إلا تشبثاً .

فهو مثلاً — أعني العلم — يستطيع أن يجمع المواد التي يتكون
منها الكائن الحي ، ويؤلف بينها .. ولكنه لا يستطيع أن يبعث الحياة
في خلية واحدة .. هكذا يقول علماء البيولوجيا أنفسهم . ١١
وهناك أعداد هائلة من الأسرار المربكة التي تختفي وراء الحركة
العامة للطبيعة ، وللكون ..

ولذا .. فالدين الذي هو تطلع دائم إلى اللانهاي .. والشعور
الديني الذي هو الإحساس بحاجة إلى التعرف بهذا اللانهاي . سيظلان
على رأس دوافعنا جميعاً ..

ووصفنا الدين بأنه قوة فكرية ، لا ينقص من دوره شيئاً ..
وحتى إذا أخذناه حسب تعريف الفلاسفة الإسلاميين له بأنه
« وضع إلهي يرشدنا إلى الحق في الاعتقادات - وإلى الخير في السلوك
والمعاملات » ..

فليس ثمة بأس في أن تكون نقطة انطلاق هذا الوضع الديني هو
فكر الإنسان .. وإلا فلماذا اختار الله رسوله من الناس أنفسهم . ولم
يختبرهم من عالم آخر .. ٢٢

ثم إن الإيمان بالله — وهو لبابُ الدين — يكون أقوم ، وأهدى حين يكتشف الإنسان نفسه حاجته إليه ، لا حين يُعَلَى ويفرض عليه . .
ولهذا — كما أسلفنا في الفصل الأول — يترك الله إبراهيم عليه السلام يبحث عن إيمانه . .

يبهره ضياء القمر ؟ فيقول : هذا ربي .

ثم يبهره نور الشمس ؟ فينادي القمر إليها ، وينادي : هذا ربي . .
هذا أكبر . .

ثم ينتهي به تطوافه إلى أن الله لابد أن يكون أعظم من هذا كله . . وحسبه من علمه به ، أنه الذي فطر السموات والأرض . .
وتَطَلَّع إبراهيم هذا ، يشبهه في الزمن الأول ، تَطَلَّع الرجل البدائي إلى اللآلئ . . وإن كان تطلع إبراهيم عليه السلام يمثل منسوباً من الوعي أسمى وأرشد . .

وهذا يُصَدِّق أن الدين تجربة الإنسان . . لا بمعنى أنه اخترعه ليزجي به فراغاً ، أو يقضى به وطراً عارضاً . . ولا بمعنى أنه اخترا أول محال ، التقى بأول مغفل ، كما يقول فولتير في سخرية عابثة . .

ولكنه تجربة الإنسان بمعنى أنه انعكاس إحساسه العميق بخالقه وبارئه ، وحاجته الراسخة الأكيدة لربه العظيم ، كما أنه مَجْبَلٌ نشاطه الروحي الزاخر . وهو لهذا سيظل جزءاً من صميمنا ها دام سر هذا

الكون مجهولا .. وهو لن يظل مجهولا ، ولا متناقضا ..
سنواجهه في يوم مقدور ، بمدّ ذلك اليوم أم قُرب .
أجل — في يوم لا ريب فيه ، سنلاقي الحقيقة ونماتقها ..
سنرى الله جهاراً كملنا ..

سنقف وجهاً لوجه أمام القوة العليا المحركة لهذه الأكوام المذهلة .
والدين نفسه ، يقول هذا ، ويتنبأ بحدوثه .. وهذا التنبؤ من أروع
آياته .. فهو يؤكد أن الإنسان لن يظلّ رهين الجهل والتّيّه .. بل إنه
سيحصل .. سيعرف كل شيء .. سيرى الحق ويواجهه .. وهكذا يفسح
أمام الإنسان آفاق الأمل والعمل

واليوم الذي سيتم فيه هذا ، يسميه القرآن « يوم الفصل » .. حيث
تتبدى الحقيقة في وضعها الفاصل ..

ويسميه « يوم الجمع » .. حيث لاشتات ولا فرقة بل نحن والحق
معا .. وحيث يلتقي الإنسان بالحقيقة التي طال بحثه عنها

ويسميه « يوم الدين » .. حيث تؤديّ للدين تحية الشكر إذ كان
الحافز الذي لا يهدأ وراء تطلعتنا إلى اللانهاى العظيم ، وإذ كان باعث
أشواقنا العالية ، ونخاطرنا السامية في شوطنا الطويل ..

الدين ، والعلم ، والفلسفة إذن ، أقوى اهتدى إليها الإنسان لينقل
بها نفسه ، ويبلغ بها غايته وهي منجلى فكره الثاقب النامى . .
وكلمة « فكر » تبدو ، وفيها من السيادة ما يجعل وضع كلمة « حر »
إلى جوارها فضولاً ولنوا . .

فليس للفكر سوى حالة واحدة يثأ كد فيها وجوده ، تلك هي حالة
التحرر المطلق من شتى القيود

أى أن ليس ثمة فكر حر ، وفكر غير حر ..

هناك فكر . . أو ، لا فكر على الإطلاق

ولكن للفكر أيضاً تناقضاته التى يتخذ خلالها طريقه ، ويمارس
وظيفته . . ولقد جهل الناس دور هذه التناقضات دهرًا طويلاً فاشتجر
بينهم الخلاف والنزاع . ولم يكن الذى حدث ولا يزال يحدث من خصومة
بين كل من الدين والعلم والفلسفة — أو بتعبير أصح ، بين رجال الدين
ورجال العلم ، ورجال الفلسفة — إلا مظهرًا للجهل بعمل تلك التناقضات
وحكمتها ، ومظهرًا للجهل بنشوء هذا التنوع فى المعرفة البشرية . .

لقد تعودنا أن ندرس الفكر الإنسانى فى « قطاعات رأسية » .
فنقول : الفلسفة ، والعلم ، والرياضة ، والفن ، والأدب ؛ والاقتصاد ،
والاجتماع . . الخ . . ولكن ، حين نأخذ هذه المعارف جميعاً ، ككل ،
متمثل فى الفكر الإنسانى ، كما هو واقع فعلاً ، فإن هذه النظرة كفيلة

بحملنا على احترام كافة القوى الفكرية التي يعبر بها الفكر عن نفسه .
إن الدين ، والعلم ، والفلسفة ، وما ينطوي تحتها جميعاً من علوم
منبثقة منها — كالآدب ، والتصوف ، والرياضة ، وعلوم النفس ، والكيمياء ،
والحياة ، والاقتصاد ، والاجتماع الخ .. هذه كلها مملكة العقل الرشيدة ،
التي لا تعرف الضنن ، ولا ينبغي لها أن تعرفه .

والدين ، والعلم ، والفلسفة ، هي تجلّي ظهور الفكر الإنساني ، ومجال
حركته . ولقد بثت نفسه فيها جميعاً لينمي عن طريقها تجربته ، وليحقق
عن طريقها ذاته .. فقيم الخلاف إذن ؟؟

كثيراً ما ترى المؤمنين بالعلم ، وبالفلسفة ، يخافون على التقدم
الإنساني من الدين .. ١١

وما تى هذه المخاوف — في رأينا — أنهم يجهلون مكان الدين من
الفكر .. ويظنونه « دولة داخل دولة » أو قوة غريبة بجهولة اقتحمت
حياة الإنسان ..

... بيد أن الفكر ثأو في قلب الدين ، والتطور الهائل الملحوظ الذي يحدث
للتفكير الديني ويجدد مفاهيمه ، دليل على وجود الفكر هناك ..

ومن هنا ، لن يكون الدين أبداً ، خطراً على التقدم لأن الذي
يصوغ للتقدم منهجه ، ويرسم له خطاه ، هو نفسه ، الذي يكتيف الآجاء
الديني ، ويمسك بزمامه ، ألا وهو الفكر ..

وأيضاً . كثيراً ما نرى المؤمنين بالدين يخافون العلم ، والفلسفة على الدين ، ويخشون منهما على تقدمنا الروحي والأخلاقي ..

فلو علموا هم الآخرون أن الفكر الإنساني الصاعد ، إنما يتوسل بهما — العلم والفلسفة — لإزجاء تقدمنا كله ودفع مسيره .
لكانوا أقرب رُحماً إلى العلم ، وإلى الفلسفة ، بل وإلى الحقيقة كلها ..
إنه ما دامت كل هذه القوى مظاهر خارجية للفكر الإنساني ، فلا بد من أن نتلقاها جميعاً بقدر مُساوٍ من الاحترام .

رجل العلم المؤمن بكشوفه وبقوانينه ، لا يليق به أن يتجههم للإيمان الخالص ، ولا يتنكر للاستشراف الروحي ، لأن العلم نفسه ينفر من من الأحكام النهائية ... وتتقلب المسلمات ، والرياضيات التي بلغت الشأو في دقتها ، كل يوم بين يديه من حال إلى حال .. وإذن ، فهو لا يستطيع أن يزعم لنفسه حق إصدار حكم نهائي ضد الإيمان .

ورجل الفلسفة ، لا تأمره الفلسفة بتحدّي الإيمان ، وتجاهله .
لأن الفلسفة كلها عبارة عن « كيف .. ولماذا » ..

وإذا جاز للفيلسوف أن يتحرك من وراء هذين السؤالين — أي أن يبحث بحثاً حراً ، غير مقيد بأحكام مسبقة حتى ولو كانت دينية ، فإن رجل الدين له نفس هذا الحق المشروع . .^١

ورجل الدين كذلك . لا يحق له أن يضيق صدره بنشاط العلم ،

أو يضيق نفساً بحوار الفلسفة . ولا ينبغي له أن تذهب طمأنيته حشرات من ذلك العدو الذي يخشاه دوماً . وهو الإنكار أو الإلحاد .

فليس على ظهر الأرض من لا يتمنى من كل نفسه أن يكون هناك إله قادر ، يلجأ إليه في أزماته ، ويطلب عونه ، وينعم برعايته .

ليس على ظهر الأرض فرد واحد ، بينه وبين الله ثار وعداوة . كل ما في الأمر . أن الذين لم يهتدوا للإيمان ، وقسوا تحت تأثير الفكر الإنساني في نقطة بعيدة بعض الشيء عن الإيمان .

كما أن المتجهين اتجاهاً دينياً محضاً ، ينأى بهم عن العلم ، وعن الفلسفة . قد أصابهم نفس الأمر . ، فقسوا تحت تأثير الفكر في نقطة أقرب إلى الدين ، وأبعد عن العلم ، وعن الفلسفة .

وأقرب الناس إلى الكمال والتفوق ، هم أولئك الذين يكونون تحت تأثير متكافئ ، ومتماثل من الفكر الإنساني العظيم .

والفكر الرشيد حقاً ليس هو الذي يقول : « هذا ، ولا شيء معه » .

بل من يقول : « هذا ، إلى أن يظهر خير منه » .

والحق أقول لكم : إنني لا أخاف من الإلحاد على قضية الإيمان أبداً .

بل إنه لمن تمام النعمة على الإيمان ، هذا الذي نسميه إلحاداً . ذلك أن الإيمان لو ترك للطمانينة ، لذوى ومات

إن جَوَّ المارك ، كان ولا يزال المناخ الطبيعي لكل ضرورة .

وكل فضيلة ...

ثم إن الدين ، كأي شيء آخر ، قد اكتسب خلال تطوره ومساره بطبقات كثيفة من الخرافات الدخيلة ، والإضافات المتطفلة .. ولم يكن ثمة ما يكشف هذا الدخيل سوى ناقد مثابر ، وخصم لجحوج .

ألا وإن التخوم الفاصلة بين الدين ، والعلم ، والفلسفة ، لتتراجع رويداً رويداً .. ويوم يسترد الفكر الإنساني انبثائه ، سيختفي آخر معلم من معالم التفاوت بين هذه القوى .

ونحن لا نحاول بهذا أن نعقد صلحاً بين الدين والعلم والفلسفة .. ففى التحليل النهائي لحقيقة كل منها ، لا خلاف بينها ولا نزاع ..

إنما الخلاف والنزاع بيننا نحن الناس .. بين الصنوف المختلفة والمتباينة لإدراكنا .. ولذا نسوق هذا الحديث لنعيد على ضوئه فهم وتحديد علاقاتنا بالدين والعلم والفلسفة أولاً .. ثم علاقاتنا ببعضنا ثانياً .

» »

عند ما أذاع الفيلسوف الأثيني « انكساجوراس » أن الشمس كرة من النار ، ولبست إلها ، نفاه أهل أثينا خوفاً من أن تعمهم الشمس بعذاب .. !!

ومن بعد انكساجوراس مئات المشاهد وآلافها ، شهدت أقواماً من أفذاذ البشر يتمرضون للهوان ، وللعذاب من أجل الصدق .

وفي كثير من تلك الوقائع ، كانت الجماهير هي الوقود الملتهب الذي
يحرق العباقرة والأبرار .

أين كان الفكر يومئذ ليحظى رواحه . . . ؟

كان غائباً . . .

ذلك أن الفكر إنما يسطق نفوذه عن طريق الثقافة . وفي المجتمع
المتقف يكون نفوذ الفكر سامقاً وعظيماً ، وبالتالي يرتفع شأن الحقيقة
ويتأكد سلطانها ، ويصبح « كبت الحقيقة » خطراً تقاومه الجماعة كلها . .
إن أعظم ما يقدمه الفكر للناس هو أنه يؤمنهم من خوف . .
والإنسان لم يستطع أن يسير عبر نفسه ، ويصنع تاريخه إلا بقدر ما كان
يقهر مخاوفه ويتحرر منها . . وكان سبيله لهذا ، القوة الفكرية الواعية
الداهمة التي كان الفكر يصحبها في قلبه ، وفي ساعده . .

أجل كان الخوف الد أعدائنا ، ولا يزال . .

ولكن ، ما شأن الفكر بالخوف . . ؟

الصلة واضحة . . فالسبب الحقيقي للخوف ، هو الجهل . . ولقد خفنا

الرعد ، والبرق حين كنا نجهل كنههما . .

وخفنا الأرواح ، فميدناها . .

وخفنا القحط ، وضعف المحاصيل ، فذببنا أفراداً منا . وقدمنا

قرايين .

وخفنا ماو كينا ، فبذناهم ، وإلى أيام فائلة ، كان شعب كبير يعبد
« الميكادو » ابن الشمس . ١

كذلك خفنا ، ولا تزال نخاف من الفكر كل جديد .. لأننا كنا
نجهل طبيعتنا الصاعدة . ونجهل إرادة التاريخ المعبرة عن إرادة الإنسان
في التطور ، والتغير ، والارتقاء . ونجهل طبائع الأشياء حولنا .
ولكن الفكر الذى اقتحم جميع مناطق شعورنا ، وتجربتنا ،
والطبيعة حولنا . ، مضى يذيع نعى مخاوفنا أولاً ، فأولاً .

وهذا هو دوره الباسل العظيم .. ومن أجل هذا ، ينظر الفكر
إلى كل قوة تحاول الضغط عليه ، وتحديد إقامته ، والتحكم فى اتجاهه .
ينظر إليها كحايمة للخوف ، وللجهل . تريد أن تستبق فى وعينا قدراً من
الخوف يمكن لها ، ويمرقل مسماها فى تحريرنا .



قلنا : إن الفكر ييسط نفوذه عن طريق الثقافة .. فالثقافة ، هى
الانعكاس الشاسع المميم لحركة الفكر كله .

فما الثقافة هذه ؟ وما دورها ؟ وما واجبنا تجاهها ؟ ؟ إذا
شبهنا المكر بالقلب ؛ فالثقافة هى الشرايين التى يودى القلب بها وظيفته .
وإذا شبهناه بالدماغ ، فالثقافة هى الجهاز المصبي الذى يتلقى عن
الدماغ ، ويمطيه . .

وكما أن كلا منهما - القلب والدماغ - يعمل طرداً وعكساً . .
فكذلك الفكر مع الثقافة يعمل طرداً وعكساً . . يعطيها ويأخذ منها .
وهكذا يستكمل تقدمه ونمائه . .

من أجل هذا ، يصير كل إضرار بالثقافة إضراراً بالفكر نفسه .
وكل إعانات معها ، يصيب الفكر بالأذى الذي لن يكفّر قطعا عن أداء
دوره . . ولكنه يمرّقه ويمتاقه .

والفكر غالب على أمره . . وسرعان ما يتسحج كل عقبات طريقه .
ويذهب صاعداً . . لكن الذين يحمل بهم السوء الطويل حقاً ، هم الناس
الذين يتخلّفون عن الفكر بتجديدهم له ، وبقطعهم ما يجب أن يبقى
موصولاً بينهم وبينه من وشائج وأسباب
حيث تكون الثقافة ، يكون الفكر . .

وحيث توجد الثقافة رفيعة شاملة ، يوجد الفكر رقيقاً شاملاً .
والفكر الإنساني ، لا ينسى أبداً وظيفته الرئيسية . . وهي تحويل
الجهالة إلى معرفة . . والخاوف إلى جرأة ، والعشوائية إلى منطق . .
والسذاجة إلى وعي مكتمل . . وبعبارة واحدة . تحويل الدماء إلى صفوة .
أجل . . هذا هو الدور الحق للفكر والثقافة . . تحويل جميع
غرائزنا ، ومشاعرنا وطبيعتنا إلى طاقة مفكرة ، ورفع الأعداد الهائلة
من البشر إلى مستوى الصفوة . .

كان الفن للصفوة .. وكان العلم للصفوة .. كما كانت الحياة كلها بكافة مناعمها ومباهجها للصفوة .. ولكن الفكر في رحلته كان ينادى الكافة ، ويُمنى بمصيرها . وكثيراً ما كان يترك القصور الشاهقة الناعمة الباذخة ، ويسرع خطاه نحو كهف أو كوخ متعب ، تسكنه أسرة متعبة ، فيُلقي بكلمة السرّ إلى طفل صاحب جائع عريان .. فيمضى على غير نهج آتراه ، وبعد حين قريب يتكشف عن حقيقى عظيم ..

إن الفكر بهذا كشف عما في صفوف الكافة من استعداد ، وأبطل حجة الصفوة في استبقاء الفن والعلم والحياة لها .. وكشف كذلك عن غايات رسالته وعمله .. وعلم الثقافة دورها ، وعلمنا واجبنا تجاهها ..



والثقافة تقطنا بدء ، لكي تؤدي عملها كاملاً غير منقوص ..

(١) الجماهير الإنسانية ..

(٢) الطبيعة الإنسانية ..

إن الجماهير الإنسانية ، هي المجلى الحقيقى لظهور الإنسان .. الإنسان الذى يعمل داخلها ، دافعاً نفسه ودافعاً إياها معه إلى الكمال اليسور .

واقف ذهبت عصور الامتيازات ، ولن تعود .. ودن اليوم بل ومن الآن .. من الجماهير تماسك أزرّة حياتها .

ونقل الثقافة للكافة ، على رأس واجبات عصرنا والتزاماته تجاه نفسه ، وتجاه الأجيال .

أجل ، وأن التربية هي الطابع المميز للبشرية الجديدة التي طلع عصرها ، وأهلّت أيامها . . وهي — أعني — التربية تهيأ لتأخذ مكان أشياء كثيرة ، طالما اعتمد عليها في تقويم الناس .

وخير طريق نسلكه لدفع التقدم الإنساني ، هو أن نضع وصية سقراط موضع التنفيذ الناجز ، تلك الوصية التي تدعونا بأن « نعلم أكثر مما نُحرِّم » . .

لقد صار الإنسان طويلاً بقوة العقيدة ، وسار طويلاً بقوة التقاليد والمادة . . وسيسير طويلاً بقوة الثقافة . .

ليس معنى هذا أنه سيتخلى عن العقيدة ، وينبذ صالح العادات . بل معناه أن الثقافة هي التي سننسق ، بل بدأت بالفعل تنسق مجموعة المعتقدات والعادات . وهذا يكشف عن ضرورة تميم الثقافة . . .

إنه ليس بوسع الناس أن يقفوا عند تقاليد انتهى دورها . . . وإن الجهل ليمزّن لهم الوقوف حتى تأتيهم قوة تنقلهم . .

وإذا كانت حركة التاريخ هي تلك القوة التي يصطنعها الإنسان لهذا ، فإن خير ما نتمتع عليه حركة التاريخ هذه ، هي الثقافة .

في الأزمان القديمة ، كانت الأسطورة تُكافح بأسطورة مثامها . .

ولكن الانسان اكتشف أن لهذه الطريقة آفاتها . . فالأسطورة
الآفلة لم يكن التغيير يبلغ صميمها .. كان الذي يتغير ، هو شكلها
لا طبيعتها .. ومن ثم أعطى الثقافة كل ثقة ، وصار يعتمد عليها في
سوغ آرائه ، وعاداته ، ونظمه .

وكما انتهت عصور المسلمات ، والأحكام النهائية بالنسبة للعلم ،
فينبغى أن تنتهى أيضاً بالنسبة للناس ، حتى لا يضلُّوا في الهوة
الفاغرة بين مبدك العلم ، ومسلكتهم .

أعنى أن الجماهير نفسها . يجب أن تتوفر لها فرص التفكير بمنهاج
علمي ، وتشجذ ملكات البحث لديها ، حتى لا يعمل العلم بعيداً عنها ،
وحتى لا يتسع مدى هذا الانفصال الملحوظ بين العقل والتخلق ..
بين العلم والسلوك .. وهذا يقتضى أن تتوفر لها أكبر حظ من الثقافة

سيقول ناس منا ، ما للجماهير والثقافة .. ؟ ؟ أولئك هم
النازعون إلى الارستقراطية ، والامتياز ، والاستعلاء .. !

وأولئك هم الذين ينسون أن جُلَّ العباقرة بزغوا من السكوف
الخاوية - ومن صفوف الجماهير الريانة البائسة ..

وأولئك هم الذين لا يستشرفون — أقل استشراف — مصير
الإنسان ..

إن مصير الإنسان ، هو مصير هذه الجموع .. وإن الانسان

ماض إلى قمة السامقات .. ما في ذلك ريب .. وإذن فالجموع ماضية
إلى نفس المصير العظيم . وسيأتي اليوم الذي تُنمَم فيه المبقرية
والمعجزة .. وإنما نشيد بأهمية العمل من أجل تمجُّل هذا اليوم ،
وذلك بالقيام بكل تبعاته .. وأولها نقل الثقافة للكافة ..

سيقولون : أَيْبَانَ للجماهير أن تمتلك الثقافة ، وهي التي تقودها
غريزة القطيع .. وهي التي نرى أهواءها تتجه بها صَوْبَ كل تافه من
الأمور وغث .. ؟ ؟

أجل إن غريزة القطيع تقود الجماعات . : ولكن أليست غرائز
الحيوان تعمل عملها في الفرد المبقرى ذاته . . ؟ ؟ ؟
إن مصير هذه الغرائز معروف في مستقبل الإنسان . إنها جميعاً ،
في الفرد وفي الجماعة ، ستتحول إلى قوى إنسانية محضه عالية .
أما اتجاه أهوائها إلى كل تافه وغث .. فلأن فرص الثقافة بعيدة
منها كل البعد .

إن الجماهير تُؤثِّر — حقاً — وسائل التسلية ، والترفيه على معاناة
المعرفة ، ومُدارسة الثقافة .. ولكن مسئوليتها عن هذا ليست
إلا جزءاً من مائة جزء ، من مسئولية قادتها وحكامها ..
كما أنها أيضاً مسئولية الاستعمار الذي عاث في الأرض فساداً ،
والذي يعتمد في دعم سلطانه على غفلة الجماهير ويُشجّع دوبا إقبالها
على التسلية ، وعلى اللهو واللعب وبخاف والفراغ ، والمعرفة .. وهو لهذا

يحشد أوقات الناس بما ينسبهم ما يريد هو أن يفسوه ، وبما يصرفهم مما يريد هو أن ينصرفوا عنه . .

لكن ذلك لن يدوم .. لأن الجماعة الإنسانية كما أسلفنا تسير في طريق مساعد .. وركونها إلى التمتع الصارفة عن التفكير وعن المعرفة أمر مضاد لطبيعة تطورها .. بل هو أمر كفيل بالقضاء على جهودها فكأى من حضارة ، ومن امبراطورية ، قضى عليها إيثار التمتع على المعرفة . .

ولقد انتفع الإنسان بهذه التجربة ، ولن يسمح بالانسكاس إليها .
يقول جلبرت هايت (١) :

« عندما غزا اليابانيون الصين ، عُنُوا بتجارة الأفيون ،
« فأباحوها ، وشجعوها في جميع المناطق المحتلة ..
« واتخذوا الألمان - العودكا - وسيلة كهذه الوسيلة في بولندة .
« أما - شادو - الحاكم بأمره في كوبا فكان خلال
« حكمه يملن عن عرض أفلام خليعة في مسارح هاڤانا
« كلما توقفت شرطته السرية ثورة أو احتجاجا ..
« وهكذا تستطيع أن تفسد أكثرية شعب إذا وفرت
« لها توفيرا لا ينقطع ملذات تُبَلد عقلها . . . 11 »

(١) كتاب « جبروت العقل »

هذه الأمثلة تبين لنا بعض العوامل التي تحول بين الجماهير والثقافة ..
والتي تعمل جاهدة لِتُبَلِّدَ عقلها ، وتضال تفكيرها . وليس من
العدل إذن أن نحاسب الجموع عليها حساباً يُقضى إلى حرمانها المطلق
من أقدس حقوقها ..

إن الثقافة ليست امتيازاً .. إنها حق الجميع . وليس من الخيال
أن نطمح في جماعة إنسانية تنتظم ألفي مليون نفس أو تريد ، ثم تُحرز
كلها من الثقافة ومن التبوغ ما يحرزهُ الأفاضل من بعض أفرادها ..
أجل ليس هذا من الخيال ، بل هو من التبعة التي تشكل جزءاً
هاماً وصادقاً من أمانة الحياة التي تقبلناها واثقين .

× ×

على أن هذا الارتباب في الجماهير ، يمثل بدوره سبباً من أهم
أسباب الإذعان لحقها في تقل الثقافة إليها .

ذلك أن هذا الشك ينمكس على القيم الكبيرة فيفسد علينا ،
الأدراك السديد لها .

ونضرب لهذا مثلاً — الديمقراطية ...
من كان يصدق أن فلاسفة الحرية في العصور الخالية يقولون كلاماً

ينمت الديمقراطية بأنها خُرافة .. لا شيء إلا لارتياهم في قدرة
الجهال على تطبيقها .. ٢٢

لقد حدث هذا ، والذين بشرُوا بالديمقراطية عادوا من أمرها يائسين .
فبعضهم يراها « آثراً من آثار الولاء القبلي للحرب » .. ١١
وبعضهم يصفها بأنها « حكومة الذين لا يحكمون » ..

يل رووا عن « روشو » معلى حقوق الإنسان هذه العبارة
المرجفة : « الديمقراطية الصحيحة ، لم توجد قط . ولن تُوجد أبداً » ١١
وحكوا عن كارليل قوله : « الديمقراطية بطبيعتها شيء يُلغى نفسه
بنفسه . ويؤدى في نهاية الحساب إلى نتيجة هي : صفر صحيح » .. ١١
و« قولتير » — الذى لا تُذكر الحرية إلا مقروناً بها اسمه يقول هو
الآخر : « إننا فى النظام الملكى لا نحتاج إلا أن نعلم رجلاً واحداً ..
أما فى الديمقراطية فينبغى أن نعلم الملايين الذين يختطفهم الموت قبل أن نعلم
عشرة فى المائة منهم » .. ١١

هل سأل أولئك الأفذاذ أنفسهم ، لماذا أخفقت ، أو لماذا تنفق
الجهال فى استخدام الديمقراطية .. ؟

إنها أخفقت لأنها لم يكن لها من الأمر شيء .
ولم يكن لها من الأمر شيء لأنها تخاف ..
وهى تخاف ، لأنها تجهل .. ومن ثمَّ يسلس قيادها لكل مناسم .

وإن هذا المثل الذى ضربناه ، كيرينا كيف ينمكس الشك فى
الجماعات على تفكيرنا ، وعلى قيمنا .. ويرينا بالتالى ضرورة تغيير
نهجنا فى صياغة الأحكام التى نطاقها جُزْأًا على الجماهير والتجموع .
إن جماهير - أثينا - التى صفت لقضايتها وهى تحكم بالموت على سقراط
وجماهير - أورشليم - التى هَلَّتْ لشهد المسيح وهو يُقاد إلى التعذيب
وجماهير - فلورنسا - وهى تَرجِم بالحجارة منقذها الأمين
سافونا رولا ..

وجماهير - روما - التى غشها الحُجُور وهى تشهد حرق برونو ..
والجماهير التى سارت وراء المغامرين إلى حتفها فى حروب
تُلَو حروب ..

كل هذه الجماهير ، لم يكن ينقصها لكى تقف الموقف الراشد
القويم سوى الثقافة والمعرفة .. ولو أنها كانت تعرف ، وتفكر ،
وتفطن ، إذن لكان لها من أمرها يُسرٌّ ، ولُبِّلَتْ من أمرها رُشدا ..

إن الجماهير البشرية ، هى تَجِبَلَى الإنسان ، ومستقر حركة وعيه
ونشاطه .. والإنسان فى كيانه الحق - فكر .. والجماعة فى كيانها
الحق ثقافة ومعرفة ..

وكل تطور لنا إلى أفضل ، رهين بما يتوافر لنا من فرص الثقافة
والملم .

ليست مزية الملم أنه يسخر لنا الطبيعة وحسب .. بل إنه والثقافة
بصفة خاصة ينميان علاقتنا بأنفسنا ، وبالطبيعة ، وبالحياة ، وبالكون
كله ..

فعشرات الملايين منا — نحن البشر — يستعملون « التليفون »
ثم لا يعرفون ما هو ؟ ولا لماذا يتم الاتصال هكذا بين الأبعاد ..
وعشرات الملايين يُصنعون للراديو نهارهم وتمساحهم ، دون أن
يعرفوا كُنْه الشيئة الحانية التي سَخَّرَتْ لنا هذا العمل العظيم ..
ليس معنى هذا أنه ينبغي للناس أن يتحولوا جميعا إلى فنيين في
صناعات التليفون ، والراديو ، والكهربا .. وإنما معناه أنه ينبغي
لهم أن يدركوا جميعا مَأْتَى الملاقة الهائلة التي تربطنا بالكون ،
وبالأشياء كلها ..

فالعلم بكشوفه ، يغمرنا بالصدقات النافعة ، وفي كل اكتشاف
جديد ، يقدم لنا صداقة جديدة . مع الهواء .. مع السماء ..
مع الكواكب .. مع البحار .. مع كل شيء في كون الله الرحيب ..
وتعميم الإحساس بهذه الصداقات بين الجموع الانسانية أمر
ضروري لكي تظفر بالمزيد من الطمأنينة ، ومن الذكاء ، ومن

الأمل .. ولا شيء يمنحها هذا الإحساس سوى الثقافة .

كان « جورج وشنطن كارفر » العالم الزنجرى الأمريكى ينحنى فوق
النبات فى الحقل ، وفوق المشب فى الكَلَأ ، وفوق نثارات الأشياء
المهملة اللقاة على الأرض ، ويمحلق فيها بعينين ذكيتين ، ويأثمها بغم
شكور ، ويصنى إليها . فإذا سئل :

— ماذا تفعل يا مستر كارفر .. ؟؟

يجيب : إني أنصت وأعى ..

وهل تُحدثك هذه الأشياء يا مستر كارفر .. ؟؟

فيجيب :

أجل — إن الله يتحدث إلى من خلالها ... !!

هذا هو الرجل الذى استنبط من القول السودانى وحده قرابة مائتى
مُكتشف وصف ، ما بين طعام ، ولباس ، وشراب . لأنه احترم
علاقاته كإنسان بأشياء الطبيعة حتى مهملاتها التى يدوسها الناس ،
وحاول صادقاً أن يكتشف دور هذه العلاقات .. !!

إن تطور أفكارنا ونموها ، رهينان إلى أبعد مدى ، بأدراك مفاهيم
العلم ، ودور العلاقات التى تبدئ لنا خلال كُشوفه العظيمة ، على
أن يكون هذا الادراك من نصيب الكافة .. وجميع الناس .

وإذا لم يكن يعطينا معرفة التفاصيل الفنية لكشف ما .. فإنه

بمنينا كثيراً وكثيراً ، أن نعرف القوانين التي وراء هذا الكشف ،
ونعرف كل علاقاتنا به ، ومصيرنا معه ..

إن هذا المعرفة ضرورية .. ولنضرب لهذا مثلاً .

لعله لم يحدث في التاريخ الانساني إجماع على مقاومة الحرب
مثلاً يحدث اليوم ..

فلماذا .. ؟ ؟

.. ربما لأن خسائر البشرية في الحربين المائيتين السابقتين
تذكيراً رهيباً ..

ولكن قبل هذا ، وفوق هذا .. اكتشاف الطاقة الذرية

واكتشاف هذه الطاقة ليس هو الذي ألهم الجماهير هذا الإجماع
ضد الحرب فأكثر من خمس وتسعين في المائة من سكان الأرض
لا يعرفون عن صناعة الذرة شيئاً - أى شيء - وإنما اكتشاف العلاقة
بيننا نحن البشر ، وبين هذا الطاقة الهائلة ، هو الباعث والسبب ...

لقد أتيج للرأى العام العالمى أن يعرف حقيقة دور الطاقة
الذرية في الحرب ...

إنها الأباداة الشاملة ، والدمار المطلق ..

وهنا حفز هذا الإدراك جميع الناس لبدء الحرب ..

كما أتيج للرأى العام العالمى أن يعرف حقيقة دور الطاقة

القدرة في السلم ..

إنه الرخاء العميم الذي يجعل الأرض في بضع سنوات
فردوساً ما مثله فردوس .

وهنا انبثت الناس جميعاً يجلبجون بدعوة السلام ..

ولئن كانت حضارات كثيرة قد تقوضت فيما سبق من عصور
بين يدي الانسان ، فلأنه لم يكن قد عرف بعد ، قيمة وحتمية
إدراكه لملاقاته بالأشياء ، ولم يكن نوعه البشري قد تهيأ بعد
لأداء حقوق تلك العلاقات ..

أما اليوم ، فقد أدرك الانسان ، وصار الناس أكثر
استعداداً لفهم العلاقات وتحمل تبعاتها وسيصيرون غداً ،
وبعد غد ، ودائماً أكثر فهماً وأكثر استعداداً ..

ولن تهب الرياح التي تنبأ بها الشاعر « اليوت » والتي
ستجىء حسب نبوءته لتسكنس بقايا البشرية المنتحرة الفانية ،
والتي ستعوى قائلة :

« هنا . عاش قوم كرام لا يؤمنون بإله . . »

« وأثرهم الوحيد الباقي هو طريق مُسبَّد بالأسفلت »

« وألف كرة من كرات الجولف » . . . ١١١ »

أجل ، لن تهب هذه الرياح . . . ما دامت البشرية قد عرفت ،

وما دامت قد أدخلت في اعتبارها الأكيد الراسخ ، تميم
الثقافة . . .

x. x

قد يرى بعض السادة أن الثقافة تفقد عظمتها وقيمتها حين تنتقل
إلى الكافة وتسير طوع أيديهم ..

وهذا يشبه قولنا : إن الشمس تفقد الكثير من وجاهتها وعظمتها
كلما وقعت أشعتها على الأعداد الكثيرة من الناس ، سيما أعداد الدهماء
والسوقة . . . أى منطق هذا . . ؟؟

إننا لو رأينا رجلاً جباراً ، يكتم أنفاس الناس ويكتم أنوفهم ،
حتى لا يزحموه في تنشق الهواء ، أو حتى لا يتحدثوا في الهواء أزمة ١١ ،
لما كان أدعى إلى الإعجاب ، من هؤلاء الذين يخافون على تفوقهم ،
أو يخافون على الثقافة نفسها أن تنخفض وتغنى ، حين تقترب الكافة منها ،
وتتفرف . . ١١ . .

فالجاهير ، هي الإنسان في دوره التاريخي . . هي الإنسان في
حركته النامية . . هي الإنسان في كينونته العائرة . . والإنسان ، هي
الفكر المرید . . فأى شيء يعنيه حرمان الجوع من الثقافة بأفسح
وأرحب مدلولاتها . . ؟؟

إن ذلك لا يبنى قتل الإنسان ، فالإنسان لم يوجد لتقتله المحاولات
التعسفة ، أو تطويه الزواجر الضالة .. وإنما يبنى فقط العمل ضد طبيعة
الإنسان ، وعمل كهذا يحمل بذور تفسخه وأخلاقه من أول وهلة



ولكن أى نوع من الثقافة تقدمه للناس . . ؟؟

هنا نلتقى بنقطة البدء الثانية ، وهى طبيعتنا الإنسانية .. لقد
ذكرنا آنفاً ، أن للثقافة نقطتي بدء .. الجماهير الإنسانية ، والطبيعة
الإنسانية .. ولقد تحدثنا عن صلة الجماهير بالثقافة ، والآن نتحدث عن
صلة الطبيعة الإنسانية بالثقافة أيضاً ..

إن طبيعتنا الإنسانية ، تملك البوصلة التى تحدد وتشير إلى حاجاتنا
الثقافية ..

هذه الطبيعة التى لم تخلق بين عشية وضحاها .. وإنما تكونت
عبر ملايين السنين ، وأصبحت تمثل كَوْنًا هائلًا زاحراً بالرؤى
والتجارب ، والإمكانيات ...

إنها هى التى تتجه بنا إلى الفلسفة ، فنتفلسف ، وإلى العلم ، فنكتشف
وتقافتنا نحن البشر ، إنما تعمل فى خدمتنا ، وتهيئة وسائل ارتقاؤنا ..
من أجل هذا لا يكون طريقها السوى أن تبدأ بالمثل العليا .. هابطة

إلى طبيعتنا .. بل أن تبدأ من طبيعتنا الإنسانية متجهة صوب القيم والمثل .. هذا ، إذا اعتبرنا المثل العليا شيئاً خارجاً عن طبيعتنا ، وهي ليست كذلك فيما نرى ..

وإن حنيننا الفطري إليها حتى ونحن في حمأة الرذيلة ، وشوقنا الدائم إليها حتى ونحن في متاهات الشهوة ، ليشيران إلى أنها أعنى مثلنا العليا ، ليست في الواقع سوى جزء من طبيعتنا تاه منا في زحمة الحياة . ولاتفتأ طبيعتنا تعمل جاهدة لاسترداده ، وتجرى بنا وراءه ، كما تجري الأم الحانية وراء وليدها الغائب

فتوجيه الثقافة ، ووضعها تحت إمرة الوصاية صيانة للعرف السائد والقيم السائدة عمل غير صالح ، لأن جهة الاختصاص الوحيدة في توجيه الثقافة ، هي طبيعتنا الإنسانية ممثلة في الإرادة الكلية الخيرة لبنى الإنسان .. كما أن الثقافة كقوة واعية ، هي التي تملك تحديد المواقف التاريخية للمثل العليا ، وللفضائل الاجتماعية ...

وإذن فننذر والفضول ، أن يتلحظ ناس بهذا السؤال :

هل تُوجَّه الثقافة ، أم تترك حرة .. ؟ ؟

إذا كان مفهوم التوجيه ، استقصاء حاجتنا الثقافية دون أى مساس بحرية الكلمة ، وحرية الثقافة — فَنَمِماً هو .. أما إذا كان مفهومه تحديد الدروب والأزقة التي تمشي فيها الثقافة على استحياء وحذر ، فهنا تصبح

الحاجة ماسة ومُلحّة لأن ندرك رفض الثقافة لكل توجيه دخيل
إن الثقافة حتى حين تنطوى على جرأة يحسبها البعض تمرداً ..
يجب أن تظلّ طليقة ..

وإننا حين نستعرض فترات التمرد الفكرى فى تاريخ البشر ، نجدها
نفس الفترات التى تحدث خلالها المصائر العظمى لنا ، واستبانة عندها
معالم طريقنا الصاعد .

إن تمرد سقراط ، وكورنيكس ، وجاليليو ، ونيوتن ، وابن رشد ،
والفارابى ، وطرازهم القويم من الأفذاذ ، كان ضرورة يقدر ما كان
فضيلة .. ليس لأنه اكتشف قوانين هامة وهدى إلى فاسقات قيمة
فحسب .. بل لأنه قوّض الإيماء المستمر ، والأملء العناءظ ، والتقليد
الساذج ، وأتاح للعقل الإنسانى أوفر حظ من استقلال الشخصية
واستقلال التفكير

إن الالتزام بقيض المعرفة ..

فالالتزام ، توقف ، وجهود ، بينا المعرفة تطلّع ، وانتقال ، وكشف
وحركة مستمرة ..

وإذا كان العلم الذى يزن ويقيس ، ويتوسّل بالمعادلات والقوانين ،
كثيراً ما ينادر يقيناً إلى ضده .. فهل يكون من العدل والمنطق إذن ،
أن يعكف الناس على رأى ما ، باعتباره الحق المطلق الذى لا ينبغى لهم
أن يجاوزوه ..؟؟

وهل ثمة تفسير لتوجيه الثقافة غير هذا .. ؟؟

صحيح أن الإلتزام كان نافماً .. إذ أنه طالما حفز أصحابه إلى التخصص والتعمق ، واستكناه بواطن الفكرة التي هي موضوع الإلتزام ، مما يعطى المعرفة فرصة ومجالاً .. ولكن بعد سيادة العلم .. والعلم بطبيعته يملك رغبة حادة في التقصى ، ويملك قدرة فائقة على بلوغه .. لم يمد ثمة مكان للإلتزام ، ولا مكان لما ينجم عنه من تعصب ، وغرور ، وركود وهكذا نصل إلى الإجابة السديدة عن السؤال السالف :

— أى نوع من الثقافة تقدمه للناس ..

إنها الثقافة كلها ، والمعرفة جميعها ..

فالثقافة كالطب ، لا تعرف الحلال والحرام ..

كما أن جميع أعضاء الإنسان في عين الطب سواء . ليس فيها ما هو عورة .. وما هو غير عورة .. فكذلك موضوعات المعرفة كلها بالنسبة للمعرفة ، ليس فيها ما هو حلال ، وما هو حرام .

فالخطر — أياً كان لونه — لاسلطان له على الفكر ، ولا ينبغي أن يكون له ساطان على الثقافة الموضوعية الأصيلة .

ولا بد أن نقف هنا لنقرر أن الفكر الإنساني لاقى من الخطر في كل المصور ، وفي كل البقاع ما كان كائناً للأجهاز عليه لولا مناعته الفنية وطبيعته الخالدة

وانطلاق الفكر ، وانطلاقنا معه ، رهينان بما نقدمه له من تقدير
وولاء وفهم شديد لحقوقه ولِدَوْرِهِ ..

أجل ، على المجتمع الانساني كله أن ينفذ يديه ، وينسلهما من
غبار وأوساخ المعركة الخاسرة التي حاولها مع الفكر
إن الحظر الأخلاقي كثيراً ما يجيء ثمرةً كجبة للنظر كثير
وسأضرب له مثلاً .. الحب

الحب على رأس القيم العليا للبشرية . وكما شجنت البغضاء أنيابها
بين السياسات والدول ، بدت حاجتنا إلى الحب أكبر وأكثر .. وأيضاً .
كلما رفعت الأمانة أعلامها ، ازدادنا هتافاً بالحب ، واستنجادا به . .

فما هذا الحب ؟

أنه في التحليل النهائي لحقيقته ، تعبير حتمي عن طبيعتنا الانسانية، وهو
من حاجتنا الأساسية التي نشترك في حتمية الظفر بها — أفراداً وجماعات ..
والنبطة التي يفيثها الحب إنما تتمثل في الحقيقة ، فرح النفس بالعثور
على تناسقها .. .

ذلك أنه حبك إنساناً ما، أو شيئاً ما ، إنما يمثل حالة تناسق تفتقدها وحين
يظفر هذا الحب بتحقيق ذاته ، وتذكر أنت الشيء الذي حبيت ، تبيئك
النبطة والراحة . لأن نفسك آنثى ، تكون قد عثرت على تناسقها المفقود
وهكذا ، فالحب ليس مجرد نزوة .. بل إن كلمة « حب » تكاد تكون

تعبيراً هزيعاً عن حقيقة الحب ..

تكاد تصلح للتعبير عن الانفعال الحبى أكثر مما تصلح تعبيراً عن حقيقة الحب نفسها

وقديماً قيل ، وإنه لحق : « فاقدر الشيء لا يعطيه » .. فلا يستطيع أحد أن يهب الآخرين حُبّه وقلبه ... إلا إذا كان يملك أولاً هذا الذى سيبدل منه ويعطى .

ولكن كيف لا يملكه ، وقد قلنا إنه - أعنى الحب - انمكاس لطبيعتنا وحاجة أساسية من حاجتنا .. ؟؟

أجل ، إن فقدانَه ممكن إذا واصلنا ردّ مَنابِه في طبيعتنا .. ولنتحدث بوضوح أكثر .

إننا نرجو من الحب ، أن يجعلنا - نحن البشر - إخوة متحابين ..

والحب ، ليس جهازاً يُشترى من السوق حيث نبلغ به الغرض العظيم .. ولكنه وظيفة من وظائف طبيعتنا الإنسانية ، وتعبير عنها . ونشاط لها .. أى أنه يبدأ رحلته من طبيعتنا ..

وطبيعتنا تموج بأهواء عدّة . وأرجح هذه الأهواء حتى يومنا هذا ، هو الهوى الجنىسى .. لذلك لبث الحب زماناً طويلاً لا يكاد يعنى شيئاً سوى تعبیر عن الهوى الجنىسى ، وإشباع له

وطى الرغم من جهود الليانات ، والفلسفات التى حاولت الارتفاع بمستوى الحب ، فقد كانت الطبيعة الإنسانية من القوة بحيث ظلت ممسكة

بنقطة انطلاقه .. ولم يكن ذلك عبثاً . بل إن المراحل التي سارها وسيرها
الحب في صحبة غريزة الجنس ، إنما تمُّ لصالح المثل العليا
التي نهفوا إليها .. ذلك لأن المثل العليا لا تستطيع أن تخفى عنا طبيعتنا ،
والمجتمع الإنساني .. في واقعه .. لا يقوم على أساس من مثل عليا منفصلة عن
طبيعته .. بل يقوم على أساس من طبيعته الانسانية المتضمنة مثلها العليا .
ومادام الحب حتى اليوم ، ورغم كل المحاولات المثالية : لا يزال إلى
حد كبير مُقهما بالجنس ، معبراً عنه ، فعنى ذلك بالبداية أن طبيعتنا
الانسانية لا تزال متطلعة إلى هذا المسلك لتحقيق ذاتها ، وأن الحب الجنسي
لم ينته بعد عصر سيادته ..

وهذا يدعو إلى أن تقبل هذا الحب .. بدلا من أن نكافئه وتقاومه
مقاومة تطيل أمد بقائه ، وترجىء قدوم حب آخر أسى وأشمئ لن يتأتى
له الجيء حتى ينجز الأول عمله ، وينتهي دوره ..

لقد بدأ العلم بالسحر المضحك ، والسذاجة الثيرة وحجراً الفلاسفة ..
وقد ظل كذلك آلاف السنين ..

وبدأ الدين — قبل أن يأتي الانسان من ربه هُدىً — بعبادة
الطوطم ، وعبادة الأشباح ، والأسلاف والخرافات ... ولبت كذلك
آلاف السنين ..

ولكن في النهاية تجلّت الحقيقة الناصعة للعلم ، والحقيقة
الناصعة للدين .:

إني أضرب هذا المثل ، لنبصر كيف أن أعظم قواتنا الإنسانية
التمثلة في الدين وفي العلم ، لم تنج من سنن التطور الطبيعي .. وأنها
عاشت بأخطائها حتى نَعَمَتَهَا آخر الأمر عن نفسها وتفوقت عليها ..

كذلك كل نشاطنا الإنساني ، يعيش بأخطائه حتى يتفوق عليها ..

وكذلك الحب يحيا — الآن — بأخطائه وسوف يتفوق عليها ..

إننا لسكي نحصل على ذهب خالص ، لا نقول للأرض : اعزلي
" أبك .. وأخرجي ذهبك .. " ! !

وإنما نأخذ من مَظَانِّ الذهب في الأرض كل ما هناك .. نراه ،
وَنَحْشَاشَه ، ووحله .. ثم نبدأ العمل ، فنستخرج الذهب الخالص ،
ونتقى الرواسب كلها ..

كذلك الأمر — إذا أردنا أن نظفر بحب إنساني يدق البشيرة
المقرورة ، ويرفعها فوق مستوى الضغن والمداوة ..

أن ندع الحب يزاملنا في رحلتنا ..



كانت « أفلاطون » يقول :

« إن أشق صداقة يمكن الحصول عليها . هي صداقة المرء لنفسه » ..

ونحن البشر ، كثيراً ما نخاصم طبيعتنا فنثبت عجزنا المؤسف عن أن نكون أصدقاء ومحبين .. وقضية الحب التي ضربناها مثلاً ، تكشف عن إحدى تلك الحالات التي نعجز فيها عن أن نكون أصدقاء لأنفسنا ، ولطبيعتنا ..

إن كثرة كثيرة من الناس ، تتطير وتثور عندما يُجلى حاجة الحب ، أو يُوضح مشا كل الجنس ، كاتب أو فنان .. ؟ فلماذا ؟ ؟
يقولون : إن الكلمة المطبوعة كاسحة ..

فلتكن كذلك .. ولتكن أكثر من ذلك . فأى بأس .. ؟ إن هذا هو المناخ الوحيد الذى تكوّن الإنسان خلاله ..

لقد ترك ملايين السنين للمراء ، وللثلوج ، وللخواء ، وللوحوش ، وللمصراعق والأعاصير ، لأن ذلك كله كان أجمع الوسائل لاستكمال كيانه الصامد الصاعد الجبار ..

فلتتش روحه ، وإرادته ، وأخلاقه فى نفس المُنَاخ .. وخير العواقب فى انتظاره .. وكما انتصر جسده ، ستنتصر روحه .
على أن فى سلوك الناس تجاه الكاتب أو الفنان الذى يجعل الحب والجنس موضوع قلبه أو ريشته .

أقول : فى سلوك الناس هذا ، ما يثير الريبة ، وما يدل على أن وراء مسلكهم هذا سوء تقدير للأدب والفن ، وسوء فهم لوظيفتهما ..

برهان ذلك ، أنهم لا يضيقون صدرا ، ولا يأسفون أبدا ، ولا يخافون على أنفسهم ولا على أبنائهم وبناتهم من كلمة العلم في الحب وفي الجنس ..

مهما يقل العلم ، ومهما يُفِض في الحديث عن جوهر الحب ودوافعه ، ومهما يُفِض في الحديث عن الجنس ، وعن طبيعته ، واحتياجاته ، وانحرافاته ، ووظائفه المضوية والنفسية ... لا يخافون حديثه ، ولا يتطيرون منه ..

فلماذا يخافون ويتطيرون من الكاتب ، ومن الفنان .. ؟؟ إن الأدب والفن ، يؤديان نفس العمل الذي أداه العلم .. ولكن بأسلوبهما وطريقتهما ..

إن مهمة العلم أن يكتشف الخصائص الذاتية للشيء .. أما الأدب مثلا ، فمهمته أن يصور الشيء في كل واقعه ، وفي كل علاقاته ، ثم يستشرف الغايات البعيدة ، والتطور الممكن لهذا الواقع .. فم " نخاف ونمحاذر " ؟؟

إن حياتنا تقترب من كمالها كلما أخذنا بناصية الوضوح . ولقد عشنا زمنا طويلا نقتات بالظنون وبالهواجس ، وبانحرافات .. وطالما مُسغنا حياتنا وسلوكنا وفق أوهم ما كان أبعدنا عن الحقيقة . وإن الإنسان هو القيمة الوحيدة في عالمه . وعلينا أن ندرك هذا جيدا .

وما الصدق ، والخير ، والجمال ، والحب ، وكل هذه المعالي سوى
تعبيرات ملائمة تعكس طبيعته العظيمة ، وتنعكس عليها مشارف مستقبله
الواعد الجليل ..

وإذن ، فلا مكان للحظر الأخلاقي في فكره ، ولا في ثقافته ..
فالعمل الأخلاقي للثقافة إننا يبدأ باكتشاف الخطأ .. فكيف تكتشفه ،
إذا حررنا عليها وسائل معرفته .. ؟؟

ليس معنى هذا ، أننا نبارك الهذر والأسفاف .. فالفرق بين الثقافة
وبينهما واضح ومبين .. ومع هذا ، فأكاد أحس بالحاجة إلى تحديد
نسبي لمفهوم الثقافة التي أطالب بحقها في التحرر من القيود ، إنها في رأيي
« كل تفكير صادق » ..

كل إنسان يفكر في صدق وفي أمانة مع نفسه ، ومع الحقيقة ،
فمن حقه أن نستمع له ، هما يكن الخطأ النطوي عليه تفكيره وتعبيره .
إن الصدق يتضمن الشعور بالتبعة : بل هو قوة هذا الشعور ..
وحسبنا من الكاتب ، أو الفنان ، أو المفكر ، أو العالم — أن يكون
على هذا الحظ من الشعور بمسئوليته وهو يؤدي رسالته .. وهو ينقل
إلينا تجربته .. وهو يكشف لنا من المجهول جزءاً لم نكن نعرفه ، ولم
نكن نراه .

نحن نعرف أولئك المفكرين الذين تحدثوا إلينا عن « مدُنهم
القاضلة » ..

وعلى الرغم من أن معظم تلك الأحاديث وتلك المدن ، يمثل منامرات
فكرية ، لمب فيها الخيال يبراعة مُفرطة إلا أننا ونحن نتلوها نُحسُّ
احتراماً أكيدا لها .. لماذا ؟

لأنها تستمد مادتها من معالم تطورنا ، ويتضمن سياقها المرح إحساسا
صادقاً وجاداً بمشاكلنا ..

وعلى العكس من هذا .. نجد كتابا يكتبون من الواقع الذى
نعيشه ، ويصورونه مشهداً مشهداً ..

ومع ذلك تبنى كتابتهم هازلة ، ضحلة ، قليلة الجدوى .. ذلك
لأنهم غير صادقين فى شعورهم بما يكتبون . بل غير صادقين فى إيمانهم
بأنفسهم كبائنين عن الحقيقة ، وسفراء لها بين الناس .

وهنا يواجهنا سؤال :

— من الذى يمسك بالميزان ، ويميز التفكير الصادق من التفكير
الكاذب الهازل .. ؟

ونجيب ..

إنه الإنسان نفسه . والإنسان وحده ..

الإنسان المتمثل فى الإرادة الكلية لوعينا ، وتقوينا وفضائلنا ..
وهو على صعيد واقعنا القريب ، رأى الامام فى أعلى نقاط تطوره وصموده ،
« فأما الزبدُ فيذهب جُفاء .. وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » ..

إن تحرير الفكر والكاتب ، والفنان من وطأة التواهي ، ضروري
لبلوغ الكمال الميسور

والوعي الأدبي والفني ، هو خير هادٍ يهدي الكاتب والفنان إلى
سواء السبيل .. وليس من حقنا أن نقول لأحدهما «أو كليهما» كخ ..
فوظيفة كل منهما «الخلق» ، ومهمة كل منهما أن يكشف لنا عن
الجانب الحسن ، في هذا الذي نراه رديئاً أي أن يكشف الحسن الكامن ،
في القبح المائل ..

وهذا يتطلب منه أن يمرض الصورة كلها ، قبيحها . وجيلها . بل
إنه كلما ركز على القبح ازداد تقيضة تألقاً وبهاء ..
إنما نطلب من الكاتب والفنان أن تكون أغراضهما الأدبية
والفنية صاعدة ..

أي أن يدلنا كل منهما على ما يمكن أن يكون ، من خلال تصويره
لهذا الذي هو كأن ..

وهذا ليس قيداً تفرضه على حريتهما .. بل كشف عن مسئولية
هذه الحرية ، وهي مسئولية تتسق مع الحرية لأنها نابعة من صميم العمل
الأدبي والفني ، ومن طبيعته .

وقبل أن تناذر هذه النقطة من الحديث ، نود أن تؤكد أنه لا شيء
يهدى للتي هي أحسن ، ويبت الفضائل اليانعة في النفس بشأ عظيم

مثل الثقافة إذا ما زجت طفولتنا وبدأت معنا من مهدنا
إن الثقافة قوة أخلاقية ، لا علمية وحسب .. وإنا لننتفع بها كقوة
أخلاقية كلما بدأنا بها مبكرين . أى إذا ملأنا وعى الطفل بروح الثقافة
وروح المعرفة وذلك يقتضى أن تتوخى مناهج التربية السبل الآتية :

* أن يدرك الطفل أننا لا نعلمه ، وإنما نقدم إليه خبرتنا .

* وأننا لا نتحكم فيه ، وإنما نشير عليه ..

* وأنه إذا كانت لنا عليه حقوق ، فهي ليست على حريته . بل على
علاقاتنا المشتركة لا غير .

* وأننا نعاونه لكي يسير « إنساناً » لا مجرد فرد .. أى أن تجعل
الشخصية الإنسانية فيه بكل نبوغها واستقامتها ، وتفوقها تجلياً كاملاً .

* وعلينا أن نُنمّي حاسة الجمال فى نفسه ، فبقدر ما تكون حاسة الجمال
نامية ونابضة ، يكون ميلنا للمظنة ، وجنوحنا عن الأسفاف ..

وعندئذ لا نرى الكذب دبلوماسياً .. ولا الكبر امتداداً ..

ولا السرقة ربحاً .. ولا اللؤم براعة .. ولا الأنانية تسامياً ..

ولا نرى الحب مجرد نزوة .. ولا المرأة مجرد ضجيجة ..

* وينبغى أن نجنبه الحظر ، والنهى ما استطعنا .. إن كلمة « لا تفعل »
تَهَبُّ الطفل نشاطاً سلبياً . ولكن « افعل » تروضه على النشاط

الايجابى الفعال .. فبدلاً من أن تقول له : لا تكذب .. لتقل له :
قل الصدق ..

أجل ، لنجعل أساس ثقافته الأخلاقية « افعل » بدلاً من
« لا تفعل » ولنعذر أن نقولها جافة غليظة .. بل لتكن « من
الخير أن تفعل » ..

إذا توخّت الثقافة هذه السبيل ، وغمرنا بها أطفالنا ؛ فليس هناك
شيء سواها يهب أسنى الفضائل ، وأعظم الأخلاق ..



وكما أن الثقافة ترفض كل حظر أخلاق عليها ، فهي أيضاً ، ومن
باب أولى ، ترفض كل حظر آخر .. ولقد أدرك ذلك كثيرون من
الفكرين الكبار : وإذا كانت السياسة تتمثل أكثر ما تتمثل في الدولة
كنظام ، فقد دفعتهم النيرة الشديدة على الفكر وعلى الثقافة إلى مهاجمتها ،
والتبشير بنهايتها .

أعلن « هوبتمان » أن وظيفة الدولة . إعداد الناس لمباشرة
أعمالهم بدونها ..

واعتبرها - نيتشه - « وحشاً جريئاً في الكذب والسرقة . كل
ما نقوله تكذب فيه ، وكل ما تملكه تسرقه » ..

ووصفها — تولستوى — بأنها « اتحاد مُلّاك » .. ١
وتعجل — باكونين — نهايتها ، فتنبأ بأنه في عام « ١٩٠٠ » ستلاقى
الدولة مصرعها وتفقد كل دواعى قيامها ..

وحتى فى انجلترا المحافظة ارتفعت أسوات مفكرين وكتاب منادية
بتصفية الدولة بكل منظماتها ، وتحويل مجلس العموم والوردات إلى
« مخازن للسماد » .. ١١

والحق أن إيمان الدولة فى توكيد سلطانها من جانب ، والصراع
السياسى بين دولة وأخرى من جانب آخر ، قد سببا للفكر الإنسانى ،
وللتقافة من الناعب ، وألحقا بهما من الأذى والضرر ما يجمل عن الوصف ..
وكان هذا الأذى يباغ أعلى مناسبيه دوما فى عصور الظلام ، والانحطاط ..

ولكن الفكر رغم ذلك كله حقق جميع انتصاراته ، وقال كل
ما كان يريد أن يقوله .. وهو اليوم فى عصور الرشد والحضارة .
أكثر قدرة على تحقيق ذاته ، وإذعة كلماته .. وإذن فتوفير الجهود
الناوثة له هو وحده العمل الحكيم .

ذلك أن تعطيل فكرة لا تمطلها وحدها بل تمطل معها أفكاراً
كثيرة كانت ستتولد منها ..

إن بذرة « المانجو » تحمل فى باطنها آلاف الأشجار ، بل تحمل
عدداً لا ينتهى من أشجار المانجو ..

كذلك الأفكار ورؤى العقل ، يحمل كل منها أعداداً لا تنتهى من الأفكار والرؤى وخلق فكرة واحدة ، يعنى خلق عدد لا ينتهى من الأفكار . ، وكما نفشقُ جميعاً هواء واحداً ، فتقافتنا نحن بنى الانسان واحدة ..

صحيح أننا نأخذ الهواء النقي ، وننأى عن الفاسد الأسن .. وفى الثقافة سيكون لنا نفس السلوك ، لكن ليس من حق أحد ما أن يحتكر لنفسه الحكم على الثقافة وتمييز تقىها من فاسدها

إنما الفكر الإنسانى ينقد ذاته ، ونفى خبثه .. وقيام فكرة فى وجه فكرة أخرى .. هو الذى يميز طيب الثقافة من خبيثها .. وليس ثمة فكرة تستطيع أن تفرض نفسها على المستقبل ، وتحتجر عليه ، وتمنع ميلاد تفكير جديد ، وأيضاً من باب أولى ، ليس من حق السياسة ذلك .. وهى لا تملك قط تعقيم الفكر الإنسانى ولا تقدر على ذلك حتى حين تريد ..

قيل : إن الاسكندر زار ذات يوم الفيلسوف « ديوجينز » ، وسأله فى تواضع وأدب :

أليس لسيدى الفيلسوف ما يأمر به ، فيكون لى شرف تنفيذه .. ؟
وأجابه الفيلسوف الزاهد الكبير :

— نعم لى حاجة واحدة .. أن تتنجى بعيداً ، حتى لا تحجب عنى

ضوء الشمس .. !!

لكن ، ليس الحظر الأخلاقى ، وليس الحظر السياسى ، هما وحدهما ، القوة التى تُناوىء الفكر وتتحدى الثقافة .. فهناك أيضاً — الحظر الاجتماعى ..

ونحن نمنى بالحظر الاجتماعى قوة التقاليد ، والتقليد .. إن للتقاليد ضرورتها وقيمتها ، فهى القوالب التى تمشى خلالها مراحل النمو والتطور للناس .. ولكن لها كذلك مثالها ومضارها .. وشرها ما فيها أنها تُغرى بالتقاليد السابى الذى يعطل قوى الخلق والابتكار ..

والثقافة تعنى — دائماً — التخطى والمجازة : وكل نقلة جديدة لها تتضمن خيراً فى سابقها ، فهى إذن لا تهدم التقاليد بتجديدها وابتكارها ، وإنما تحولها وتطورها :

إن كل طور جديد من أطوار الثقافة ، يبدأ بأن يتناقى خير ما قبله ، ثم يستوعبه ويمضى به فى انطلاق جديد : وهذه العمالة الدائمة تمارسها الثقافة بوسائلها دون ما حاجة إلى تدخل منا أو من أية قوة خارجة عنها سوى قوة الإنسان التبدية فى حركة تاريخه :

وإذا نحن حاولنا أن نعرف :

لماذا باحت حقيقة الجاذبية بسرّها لإسحق نيوتن . ؟

لماذا تسكفت كروية الأرض وحركتها لكورنيكس وجاليليو . ؟

لماذا تبدت نظرية أصل الأنواع لدارون . ؟

ولماذا بزغت فكرتها من قبل في وهي ابن مسكويه . ٢٢ .
لماذا تفتحت آفاق الفلسفة لابن باجه ، وابن رشد ، وابن سينا ،
والفارابي . ؟

لماذا نبغ جابر بن حيان في الكيمياء ، وكان من كبار روادها . ؟
لماذا أسس علم الفلك قياده للبياتاني ، وأبي الوفاء البوزجاني ،
وهيد الرحمن بن يونس . ؟ ؟

سنرى وراء كل هذه العبقريات تفوقاً على التقاليد ، وعلى التقليد . .
فالعصور التي تيمّلت فيها تلك العبقريات كانت محافظة في تفكيرها ،
وكانت ترى في هذه المحاولات ضروباً معتسفة من التجديف والروق .
ولو أن أولئك الأفاذا وهنوا ، واستكانوا ، لما قدر لهم أن يؤدوا الأدوار
الكبرى التي أدوها .

بل ، لو أن المسيح نفسه ، وقف عند تقاليد قومه ومعتقداتهم دون
أن يتخطاها ..

ولو وقف الرسول عند تقاليد الدين يخرون للأصنام سُجّداً — لما
كانت المسيحية ، ولا كان الإسلام ..

فالثقافة — إذن — لكي تؤدي وظيفتها يجب أن تتحرر من كل
تبعية للتقاليد ، وهي بتحررها هذا لن تكون كالثور في متحف الخريف .
ولن تبث الألنام المهلكة في أرض التقاليد القائمة .. فين الثقافة

والتقاليد روابط تاريخية ، تجعل كلا منهما يعطى الآخر ويأخذ منه ..
ولمّا ستهدم الثقافة من التقاليد كل ما استنفد أغراض وجوده وبقائه ،
ويجب أن تُمكن من هذا لأنه من مقتضيات تطور الحياة الإنسانية كلها ..

حين تسيطر التقاليد على الثقافة تتحول — أعني الثقافة — إلى
مجرد تقليد ، وترديد ، واجترار . وتأخذ طابعاً محلياً ضيقاً عطناً ..
وتُقرّز عفونات كثيرة أهونها التعصب المموم لها .. وعندئذ يصبح
« كبت الحقيقة » هو الفضيلة التي يشرها الذكاء وتقتضيها المسيرة .

ولمّا لنعلم أن شرّ ألوان الاستبداد ، هو « استبداد الكلمة » ..
وإن بضع كلمات ، كانت تقول « الأرض مسطحة » ظلت تستعبد
البشر أحقاباً تلو أحقاب ، حتى إذا انشقت الصفوف المدعنة عن بضعة
أفذاذ أرادوا أن يجاوزوا الضباب إلى مطالع الضوء .. هبّت التقاليد
في وجوههم بإطشة فاتكة ، فسجنت ، وشنقت ، وأحرقت .

إن الثقافة من عمل الإنسان .. ولا بد لها من مجاوزة التقليد إلى
الابتكار ، والمحلية إلى الشمول . فذلك من صميم طبيعتها .

وحيث يوجد « إنسان » فثمّ وطنها .. فليس لها وطن خاص ،
ولا جنسية خاصة ..

فالثقافة الماركسية السائدة في روسيا وفي الصين وفي كثير من بقاع
الأرض — اكتشفها عقل ألماني ..

ونظريات ابن الهيثم في الضوء .. واكتشافات أبي بكر الرازي في الطب والكيمياء .. ونظرات ابن رشد والفارابي وابن سينا في الفلسفة. هي التي علّمت أوروبا ، ولا تزال تعتمد مكاناً جذرياً في ثقافة أوروبا السامقة ..

كما أخذ علماء العرب وفلاسفتهم هؤلاء ، عن الثقافة اليونانية ، التي تلقت هي الأخرى عن الثقافة المصرية .

فالحلّة والتقليد ، دخيلان على الثقافة ، وهي تُرفضهما بقدر ما تسعى إلى الانتشار والابتكار وحين تتأثر ثقافة بأخرى ، فهي في الواقع لا تقلدها إلا إذا وقفت عندها ، وأخذتها بطريقة النقل الحرفي ، وشَفَّ الصُّور .. وهذا شيء غير ممكن حتى لو أرادته الناس .. لأنّ طبيعة الثقافة تقودها . وطبيعتها هي الاستيعاب ، والتحويل والخلق ..

وكل ثقافة تتأثر بأخرى في هذه الحدود .. والإيمان بهذا ضروري للناس كي يوفروا الجهود المدوانية التي ينفقونها عبثاً ضد الثقافة .

× ×

إن الجمل بعالمية الثقافة يحمل على التمسك النميم والخوف الأهوج .. التمسك لثقافة ما ، والخوف من ثقافة أخرى .

كما أن ضراوة العبقرية ، وعبادة البطل ، حين يكون هذا البطل مفكراً .. بعض نتائج هذا الجهل .. وهما يشكلان خطراً على الثقافة جتة عظيم

فنحن حين نؤمن بثقافة ما ، أو بعبقرية ما ، إيمان العوام — فإن هذا الإيمان يدفعنا غالباً ، أو دائماً ، إلى الاستخفاف بما عدا هذه الثقافة . وهذه العبقرية .

والذين تسترقهم وتستعبدهم عبقرية فرد ، كثيراً ما يُحرمون الانتفاع بعبقريات الذين يناهضونه .

وكما يحدث هذا للأفراد ، يحدث للأمم والجماعات ..

ولذا فإن مناصنا العظيم ، هو عبقرية الإنسان ..

وعبقرية الإنسان لا يملكها واحد ، ولا مائة ، ولا ألف .. لا تملكها أمة .. ولا جيل .. ولا عصر .. إنما يملكها النوع كله ، ومتجلى ظهورها جميع الزمان ، وجميع الناس ..

والثقافة ليست معرفة فحسب ، بل هي كذلك نفوذ ..

ونفوذنا يتسع بقدر ما يكون معنا من ثقافة . كما أن كل إهمال لثقافة ، وإعراض عن فكرة ، ومناهضة لمعرفة ، يعنى نقصاً كبيراً في نفوذنا !! ..

والثقافة تحرير ، لا استعباد . . .

وهي بهذه المثابة تدعونا لأن نتعلم من جميع الملين ، ثم يسير وحدنا دون أن نكون ظلالا للآخرين مجرد ظلال ..

وهذا واجبنا نحن بني الإنسان في كل زمان ، وفي كل مكان ..
أن نتعلم من جميع الملين دون أن نقعد في غمار عظمتهم استقلالنا الفكري ، ودون أن نتحول إلى إمعات تائهة
أو على حد تعبير « امرسون »^(١)

« اشكروا الله على هؤلاء الرجال الأخيار .. »

« ولكن ، ليقبل كل منكم : أنا كذلك إنسان - »

هذا هو الامتياز العظيم الذي تقدمه الثقافة لنا ، وتُفِيثُهُ علينا . وإنها لتمنحه بقسطاس مستقيم لجميع الذين يسعون إليه ويريدونه . . . جميع الذين يعلمون أن الحقيقة ليست ملكا لأحد ، ولا ملكا للجماعة ، ولا ملكا لمصر . . . جميع الذين يهربون من الرق . حتى حين يكون استرقاق الكلمة الصادقة نفسها .

وهذا الامتياز كذلك ، هو الحد الفاصل بين الثقافة والتعليم ..

إن التعليم يُؤهلنا . . أما الثقافة فتعلن سيادتنا ، وتؤكد تفوقنا على كل عوامل التبعية والخضوع ..

وحين نتبع جميع الذين اكتشفوا لنا قوانين الطبيعة ، وقوانين المجتمع ، وجميع الذين نقلونا من عصور الجهالة إلى عصور النور والعلم ،

(١) كتاب (مختارات من امرسون)

نجدهم جميعاً وبغير استثناء من المثقفين : . أعنى من الذين جاوزوا
التعلُّم إلى الثقافة . . جاوزوا الاطلاع إلى الانشاء والخلق . .
جاوزوا عبادة البطل الفكر إلى اكتشاف البطل في أنفسهم ،
وفي ذواتهم ومواهبهم . .

أجل . . . لنشكر الله على جميع اللطيفين والرزود ، ولكن
لنفسح صفوفنا لآخرين وآخرين فإن معجزات الانسان لا تنتهى لها . .
إن شر ما نصنعه هو أن نحمل المفكرين على نبذ آرائهم لمجرد أنها
لا تتسق وآراء آخرين من الأطواد الشائخة ، والبعقریات الفذة . .
ولأنها لا تتفق والعرف السائد والمعرفة القائمة ، فكأى من أفكار
نبذها الناس ذات يوم وحاربوها وفككوا بأصحابها . . ثم إذا بها تفرض
فيما بعد نفسها ، ويتبين العقل الإنسانى أنها حقائق ، وقوانين ،
ومُسَلَّمات . .

ومن الذى أوتى الحكمة كلها . . ؟؟ لا أحد . . والذى يظن
أنه وعى جميع الحقيقة ، إنما يجهل الحقيقة جهلاً كبيراً .

ولقد عبّر عن هذا المعنى تمبيراً سديداً ، العالم الرياضى الكبير
— لاجرانج — حين جمل شعاره :

« لا أعرف » . . . 111

وأيضاً عبّر عنه العالم الرياضى « لينتز » حين قال ^(١) :

(١) كتاب « رجال الرئاسة » .

« لَدَى الكثير من الآراء التي ربما تكون ذات »
« فائدة يوما ما ، عندما يُقيض الله لها آخرين من هم »
« أذكى مني ؛ فيفحصونها فحسباً عميقاً ، ويصلون جمال »
« مقولهم بمجهودات عقلية ... »

« نيوتن » في قوله المأثور :

« إذا كنت قد رأيت أبداً قليلاً مما رآه الآخرون ، »
« فلهذا من سبب إلا أنني كنت أقف على أكتافهم ... »
وفوله الحكيم :

« لا أدري كيف ينظر إلى العالم ، ولكني أراهم »
« لنفسي كما لو كنت غلاماً يلعب على شاطئ البحر ، »
« وأسأل نفسي بين الحين والحين بالعثور على حصاة »
« أكثر ملاحظة ، أو صدفة أكثر جمالا ، بينما يحيط »
« الحقيقة العظيم يمتد أمامي ، دون أن أعرف عنه »
« شيئاً ... »

× ×

فلتقل كل ثقافة كلمتها ، ولتخرج خبء تفكيرها ، ولتُذِغْ
بين المالكين فلسفتها وآراءها ... فليس على ظهر الأرض سلطة أعلى من
سلطة الفكر تستطيع أن تزم لنفسها حق التحكم فيه وحق توجيهه -
والكلمة .. هي الفكر منطوقاً ، أو مسطوراً ..

وصدقت آية الإنجيل . . « في البدء كان الكلمة » ...
فاتأخذ الكلمة كل حقها في الذبوع والانطلاق . . وكل حقها
في أن تظل جليلة عزيزة ، فلا تُسَف في استعمالها ، ولا فتوسل بها
للتحريف الحق ، وتمجيد الكذب .

ولندع الثقافة حرة طليقة ، إلامن الضوابط التي تضعها هي لنفسها .
ولنرحب بكل ثقافة تثير الذعر في نفوسنا ، لأنها دليل على أن
بهذه الأنفس خوفاً مُدْلاً ، يجب أن يرحل . .
وبكل ثقافة تثير الشك في أنفسنا ، لأنها توقظ إرادة اليقين لدينا ،
وتزودها بالبصيرة والفهم . .

وبكل ثقافة تُسمِّعنا حشرة الأنقاض التهاوية داخل تفكيرنا
المُدْبِر ، لأنها تبشر بميلاد جديد لوعينا ...

وبكل ثقافة تتحدّى أفكارنا وآراءنا ، لأنها ستكشف عن زيفها
إذا كانت زائفة ... أو تزيدنا إيماناً بها وإصراراً عليها إذا كانت صادقة ...

وكما جعلنا شعارنا نحن البشر — « ثقافة بنير قيود » .

وكما استمسينا بهذا الشعار ، ازداد نفوذنا في الحياة .

فلنصنع هذا ، صادقين .

ولنتق بالفكر الانساني العظيم ، ولنمض معه ، فإنه يتقدم بنا فوق

الغرف ، وفوق الظلام ...

التَّحْنُوتُ وَالْإِخْتِيَارُ

هناك قصة تُروى ..

ربما تكون قد وقعت بذاتها . ، وربما لم تقع ، ولكن مفهوم
يتكرر في صور لا تُحصى ، ويُعثل مأزق البشرية كلها ..

استأجر أحد الناس رجلاً شديداً القُوَى لقطع بعض الأشجار .
وعند الغروب ، دَهِشَ إذ وجده قد أنجز في يوم واحد ما كان يتطلب
أربعة أيام ..

وفي اليوم الثاني كلفه أن يصفّ الأخشاب ويُرصّها ، وأنجز الرجل
عمله هذا في وقت جدّ وجيز ..

وفي اليوم الثالث عهد إليه التاجر بكومة كبيرة من البطاطس ،
وكلفه أن يفرزها . وقال له : أما الفاسدة ، فانبذها . ثم ضح الجيدة
هنا .. والأقلّ جودة هناك ...

وفي آخر اليوم جاءه . ، وكم كانت دهشته حين أُلْفاه لم يُنجز من
العمل إلا أقلّه ..

وسأله : ماذا دُعاك .. ولماذا هذا البطء الشديد .. ؟؟ فأجابه
الرجل : — « إن الصعوبة التي أجدها في الاختيار والتمييز بينها ، تكاد
تقتلني » ... !!

إني لأذكر دوماً هذه القصة ، كلما تراءى لي سعى الناس
في الحياة .

وأذكر معها في نفس اللحظة ، ونفس السبب ، كلمات الفايصوف

« سانتا يانا » :

« ليست الصعوبة الكبرى في الحياة أن نختار بين الخير »

« والشر .. بل أن نختار بين الخير ، والخير... »

هذه هي مأساتنا .. وفي نفس الوقت هي عظمتنا .

أجل ، وهذا مأزقنا العظيم . . . ١١

الاختيار بين الجيد والأجود ... بين الحسن ، والأحسن ، وليس يبدأ
مأزقنا من هنا ... من عملية الاختيار ذاتها . . بل يبدأ قبلا من
التحديد الذكي للأشياء ، تحديد الحسن ، والأحسن ، وتحديد
الردىء الذى سننبذه جانبا ...

التحديد ... والاختيار ... ١٢

يا لها من كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين في الميزان .. ١١

فهما معراج الحياة البشرية كلها ... وبسبب منهما تمت جميع
خطواتنا الطافرة إلى أمام .

× ×

ولكن كيف نحدد ، وكيف نختار . ١٢

لقد كان سبيلنا لهد ، ولا يزال .. « الخبرة والتفكير » ...
والخبرة هنا ، لا تعنى مجرد نزهة ممتعة ؛ إنما تعنى السكوح والماناة .
وكما يقول « جون ديوى » :^(١)

« لى نختبر شيئاً ما ، فالذى يحدث أننا نُؤثر فيه ،
ثم نتلقى نتائج فعلنا ، تأثيراً مماثلاً ينعكس علينا من
« الشيء ذاته » .. »

أى أن الخبرة ليست مجرد مزاولة العمل ، بل هى معاناة العمل بكل
تجربته وخطئه .. ثم هى الألم ، أو الشوق الذى يرتبط كل منهما
بالتجربة ، ويظل مرتبطاً بذكرها ...

وهكذا ، فالخبرة فى حقيقتها ليست مجرد اكتشاف شيء ما ، وإنما
هى اكتشاف أنفسنا داخل هذا الشيء ، واكتشاف روابطنا به ،
واكتشاف جميع العلاقات التى يعمل داخلها ذلك الشيء نفسه .

وهذا ، هو العمل الصعب للتفكير .. فالتفكير بدوره لا يعنى
إدراك المجردات .. لا يعنى إدراك الأشياء معزولة عن علاقاتها ... وإنما
يعنى إدراك العلاقات وتمييزها .

يعنى اكتشاف الروابط بين أعمالنا وعواقبها .. يعنى الأحساس
بمشكاة .. ثم ملاحظتها بكل ما تنطوى عليه الملاحظة من شك وحيرة .

(١) كتاب « الدعترالية والنزعة »

ثم من حدس وتأويل . ، ثم من فحص وكشف وتحليل ..
ويعنى أخيراً — المعرفة .

• وعندما نعرف ، يتسنى لنا أن نحدد ، ونختار .. وهكذا تبدو المعرفة
ولها قيمة ثانوية لاغير ...

أما القيمة الأساسية حقاً ، فهي لعملية المعرفة نفسها ... هي تجربتنا
المنطوية على التجربة والخطأ والماناة .. ذلك أن هذه العملية لا تشمر
المعرفة الصحيحة فحسب . ، بل وتثمرنا أنفسنا ، ونصهر كل ملكاتنا ،
ومواهبنا ... كما نواصل عن طريقها تنمية جوهرنا واستعدادنا .

فالناس الذين يتلقون « معارف جاهزة » ، ليسوا كالأخرين الذين
اكتشفوا هذه المعارف ، وعانوا خلقها .. والطفل الذي تعلم شفاهاً ، أن
التيار الكهربى يصعق ، لن يكون أكثر حذراً ، من الطفل الذى عانى
التجربة نفسها ، وكاد التيار ذات يوم يصعقه ...

وحين ننقل لوحة فنية بطريق « الشف » دون أن تمنى — على
الأفل — عملية رسمها ومحاكاتها ؛ فأنت لا تكون قد أتيت أمراً مذكوراً ..

فالمعرفة الحققة — إذن — هي أن تمنى تجربة هذه المعرفة ..

والاختيار الحق ، والحرية الحققة ، هما أن تمنى تجربتهما ..

فبدون معاناة تجربة المعرفة — لا معرفة ...

وبدون معاناة تجربة الحرية — لا حرية ...

أى أن التجربة والخطأ بالنسبة لشيء ما ، هما سبيل وجوده ، وهما من صميم جوهره وحقيقته ...

فالكمال المطلق في حياتنا البشر غير موجود - أما الوجود فعلاً ، فهو الكمال اليسور .

والذين يريدون « معرفة » بغير خطأ ..

« وعدلا » بغير ميل . .

و « حرية » بغير إساءة . .

و « فضيلة » .. بغير نزوة .. جدُّ واهمين ...

وكما أن وجود الخطأ ، لا يبرر عدم « الفعل » فوجوده أيضاً ، لا يبرر « سبب الحق » ... !

ومن حقوق الإنسان المقدسة ، أن يختار

ووقوع الخطأ في اختياره ، لا يمكن أن يسلبه حقه في الاختيار !

سواء . والخطأ من صميم تجربته . . والتجربة هي كل شيء في تفكيره ، وفي مصيره ...

من هذه البديهة ، بدأ الحديث عن قيمة « الاختيار » في حياة الإنسان

ونحن لا نمرض الاختيار ذلك المرض الفلسفي النظري ، الذي يبحث

ويسأل : هل الإنسان مجبر ، أم مختار . . ؟ كلا ... ليس هذا موضوع

حديثنا بحال ...

إنما نتحدث عن الاختيار ، كضرورة إنسانية . وحقيقة تاريخية
مارست عملها ونجم عنها كل مافى حياة الانسان من تقهقر وارتقاء ...

* * *

الانسان الذى قلنا أنه بدأ حياته كإنسان ، وهو مزوّد بتصورات
هائلة ، ومنطوق على تجارب مبهمّة لامتّهي لها ... والذى صادف في حياته
الانسانية حشوداً متساوقة متتامة من الأحداث والتجارب ... ليس
أصعب عليه من أن يختار ...

ولكأن أقداره حين ناطت حياته بالاختيار ... وحين أحاطت
الاختيار بكل هذه الصعوبة ، وتلك المعاناة ... قد أرادت أن تشمره ،
ونعلا رُوعه بأن الحياة جد لا هزل . وأنها ليست منتدى . يحتسى اللهو
سُماره ... إنما هي عمل دائم لا يقر قراره ...

إن بطل القصة السالفة التى بدأنا بها حديثنا هذا ، يمثل موقفنا جميعاً
من الاختيار ...

فلقد كان الرجل أبداً ، عارم القوة . شديد الغلب ... يقتلع الأشجار ،
ويرص كتل الخشب ، وكان العمل الشاق بين يديه دُميّة يتلهى
بها ويتسلّى ... لكنه لم يكد يجلس إلى « كومة » البطاطس ، حتى
ضعف وبأن عجزه .

لم تصرعه « حبات »... البطاطس الضعيفة الرخوة... وإنما أضواء
وبلبل خاطره ، عجزه عن التمييز بينها . ولقد كان ذكيا حسيفاً ذلك
الشاعر الذى قال :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الجهالة ينعم
غير أن هذه الشقوة بالعقل ، من أجل مزايا الإنسان وأعظم فرص
قدمه وسادته .

والإنسان لم يكتشف نفسه تماماً ، إلا حين واجه هذا المآزق العظيم
في حياته ... حين سمع نداء باريه للتمال بجلجل في أعماقه : أن تقدم .
لقد منحتك كل أسباب التفوق . فأرني الآن ، كيف تصنع ...

× ×

والاختيار في مدلوله العميق ، يتمثل في موقف واحد ، هو اختيار
الإنسان مصيره .

ولقد اختار الإنسان مصيره فعلا ، ويتأخص في هذه الكلمات

● أن يسود أرضه ...

● أن يسود طاله ...

● أن يسود نفسه ..

هذا هو المصير الذى اختاره الانسان وشدهٗ اِليه الرحال
والسيادة هنا ، لاتعنى سوى التفوق المستمر
ولقد رأينا كيف ساد الأرض فعلا وجعلها وطننا مناسبا وعظياله ..
ورأينا كيف ساد عالمه بكل علاقاته الطبيعية والبشرية ...
وإنما يأخذنا الشك فى أنه ساد نفسه ...
بيدَ أنه من الإنصاف للانسان ، أن يعترف له بالسيادة على نفسه
أيضا . ولن يُعجزنا التماسُ مظاهر هذه السيادة صبرَ تاريخه وتطوره ..
ونحن فى حقيقة أمرنا ، لانستريب فى تفوقنا الروحى هذا ، إلا
بدافع الإدراك السديد لقيمة هذا التفوق ، وإلا بدافع الرغبة النبيلة فى
الظفر بالمزيد منه .

هذه السيادة إذن . . سيادة الإنسان عالمه ، وأرضه ، ونفسه ، هى
الغرض الذى يتمثل فيه مصيره الذى اختاره ..
. وثورات العلم ضد الجود والعجز ، وثورات الشعوب ضد الملوك
المستبدين ، لم تكن تعنى إلا أن الإنسان يمارس اختياره وأن البشرية
تقرر مصيرها

صحيح أنه مرَّق من صفوف البشرية من قاوموا بجيوشهم وأساطيلهم
حق تقرير المصير لكثير من الأمم المسالمة ، والشعوب الوديمة المنادية بحقها
لكن تشبث الإنسان بحقه فى اختيار مصيره الحر . ، وتشبثه
ببلوغ هذا المصير ، كان - ولا يزال - يدفع قوى الشر أمامه كالكرة .

وكانت النكتة البشرية - ولا زال - تثبت أنها ، على حد تعبير جيفرسون ،
« لم تولد بسروج على ظهورها » . وهكذا رأينا ، ونرى ، كيف تحقق
الإنسانية كل يوم انتصارا عظيما يقترب بها من مصارها العظيمة
الواعدة ..

كان - غاندى - ، وهو يطوف قرى الهند ليجتمع الناس حول دعوته ،
وليشير فيهم الإصرار الوديع على نيل حقهم ، وأخذ حريتهم - يقول لهم :
« لم يستول الانجليز على الهند فنحن الذين أعطيناها إياها »
« وسنحصل على الاستقلال » ، عندما نتعلم كيف نحكم
« أنفسنا » ، إذن فالأمر لنا

الأمر لنا ...

هذه العبارة الموجزة كل الإيجاز ، هي الطاقة المائلة التي انتصر بها
غاندى ، وانتصرت بها أمته ..

أجل ، هي ، لا لجرد أنها عبارة .. بل بوصفها عقيدة آمن بها
غاندى ، وعلم شبيه أن يؤمن بها ..

إنها مثل القوى السحرية المحبوة في التحديد والاختيار ، حين
يتضمنان إرادة تنفيذها ..

وهذه العبارة نفسها ، « الأمر لنا » .. هي القوة النافذة التي
سار بها الإنسان مخترقا الحواجز متخطيا العقبات ..

لم يكن الإنسان يلوّكها بلسانه ، ولا يخطّها بينانه ثم يتمطى وينام .
بل كان يمارسها ، ويميشها ، ويحيّاها ..

وإن أروع آيات الإنسان حقاً هي أنه عاش دائماً هذا المبدأ «الأمر لنا» .
وهو لم يعيشه متبذّخاً به ولا مُتأهّياً ، بل جاداً ، مُمانياً ، مكابداً ..

فلكي يكون الأمر له يجب أن يستمتع بأهلية راشدة تمكنه من
حيازة الأمور .. وهذه الأهلية لا تُباع فيشتريها ، ولا تُدرك بالحفظ
النائمة . وإنما بِشَحْذِ كل ما آتاه الله من موهبة وقدره ، ولقد فعل .
وعن طريق التجربة .. والتجربة وحدها .. مضى يُباشِرُ جُهدَه
النيل الجليل ، بأنياً نفسه ، مكتشفاً دوره ، مختاراً مصيره .

ومذ كان يسكن الغابة والكوخ ، إلى اليوم الذي أطلق فيه
سوارِيحَه نحو الكواكب العُلى ، تُنبِئُها بقرب قدومه ...

من ذلك اليوم البعيد مُنتهى البعد ، حتى أيامه التي يعيشها الآن
وهو يُجَاهِدُ بِهُ بعزمه الجَسُور مشكلات ضخمة نناوئه ، وتريد أن تدحض
حقه ، وتَقِفَ مسيره ولكن إيمانه بأن الأمر له ، كان يُفَرِّغُ في ذكائه
من التوفيق ، وفي يديه من القوة ما يجعل الصعب سهلاً ، والخطر متعة ،
والمستحيل ممكناً ..

ولقد حذق الإنسان هذا الدرس ، وأجاد حل تبعاته ..

وأكثر أبناء جلدته ونوعه تفوقاً في الحياة هم -- دائماً -- الذين حذقوا منه ذلك الدرس العظيم ..

هم الذين يتواسون بالحق المشترك بينهم ، مؤمنين بأن الأمر لهم ، وبأن المسئولية مسئوليتهم ، وبأن المصير مصيرهم ..

هم الذين يقدرّون على أن يُحمدّوا .. وعلى أن يختاروا .. وعلى أن يعضوا ، وينجزوا .

ونفس الطريق الذي سلكه الانسان لينشئ « مشيئته المختارة » ، هو الذي لا معدل عنه لكل جماعة إنسانية تريد اللحاق بموكب الانسان أعني الخبرة .. ، والفكر ..

أعني معاناة التجربة معاناة كاملة .. وإدراك مدلولها إدراكاً صادقاً .. واختيار الموقف الذي توحى به التجربة والإدراك .

وفي تقرير المصائر البشرية جميعها -- السياسية ، والعلمية ، والاجتماعية ، يجب أو ينبغي أن يكون هذا هو السبيل ..

x x

ويجب ، أو ينبغي ألا يكون الخطأ سبباً في التخلي عن التبعة بحال ..
وما دمتنا -- نحن البشر -- نختار حياتنا ، ونختار مصيرنا ،

فلا بد أن تكون مادة الاختيار بين أيدينا .. وأن يكون معنا من-
الطمأنينة القدر ، الذي يسمح لنا بالتصرف وبالمنافسة .

أى لا بد أن نعرف كل شيء عن حياتنا ، وكل نسي . عن
مصيرنا .

وحياتنا ، هي عاداتنا ، وعقائدنا ، ومؤسساتنا

هي تجاربنا ، وكفاحنا ..

هي آلامنا ، وآمالنا ..

هي أهواننا ، وجددنا ..

وبعبارة واحدة ، هي كل ضروب شاطئنا الإنساني .

ومصيرنا ، هو الطريق القويم الذي تتحقق عليه أغراض
وجودنا .

فلكي ننظم هذه الحياة ، التي هي حياتنا .

ولكي نستقبل ذاك المصير ، الذي هو مصيرنا ، ينبغي أن يوضع
كل شيء ، يتعلق بهما بين أيدينا ، وتحت أعيننا ، وتفكيرنا ، واختيارنا
إن حرية الاختيار تمثل اليوم في حياة البشر « مركز التنفس »
— ولئن كانت كذلك في كل وقت ، إلا أنها اليوم أكثر ، وأخطر .
قديمًا ، كان اختيار جماعة ما ، أو أمة ما ، يؤثر في حياتها أولاً ،
وبالذات .. ثم لا ينتقل هذا الأثر إلى المجتمعات الأخرى النائية إلا

بعد زمن طويل يعتميه بعد الشقة ، وندرة وسائل الاتصال .. وتغير
هذه الرحلة الشاقة الطويلة ، يكون الأثر قد تقطعت أنفاسه ، وتبددت
وطأته ..

أما اليوم ، فأثار التفكير والاختيار تنتقل بسرعة الضوء ، مع
وسائل شتى قهرت الأبعاد والمسافات ..

أجل ، تنتقل مع المنياع ، والسيما ، والصحافة ، والكتاب
وحين يختار شعب « رقصة » معينة لنفسه ، نبصر هذه الرقصة
ذاتها ، وبعد بضعة أيام من اختراعها واختيارها ، تملأ أركان الأرض
وتتلوى بها أجسام الملايين في معظم البلاد والشعوب .. !

فالاختيار في عصرنا هذا لم يمدَّ حُلماً . بل هو عالم واسع
النطاق — ومن أجل هذا تعظم تبعاته ، وتكبر مسئولياته ..

إنه يفرض على الناس في كل الأرض . أن يفكروا طويلاً قبل
أن يختاروا . وأن يعلموا أنهم لا يختارون لأنفسهم وحدها ، ولا
بأنفسهم وحدها .. وإنما يختارون للعالم كله ، ويختارون أيضاً بتأثير
من مزاج العالم كله . وهذا يقتضى أن يكونوا وهم يختارون ، على أكبر
حظ من الوعي ومن القدرة على الاختيار .

وكل شعب من شعوب كوكبنا هذا ، مدعو لمأناة تجربة
التحديد والاختيار ، مهما تكن تكاليفها . ومشقاتها . وإلا وُضع
نفسه مختاراً تحت الوصاية .. وسبب للبشرية كلها نقصاً في نفوذها —

ذلك أن النفوذ الإنساني هو ثمرة الإرادة الإنسانية .. والإرادة الإنسانية تشكلها إرادات الرُّشد التاريخي والجماعي لكل أمم الأرض وشعوب الإنسان .

واختيار كل أمة لنفسها ، لن يعنى التفسُّخ ، والتشتت ، والفرقة بين أبناء طائفة الواحد . فالتطور الإنساني يَمِي نسه تماماً . ونحن إذ نمضي في مساره ، إنما نستهدى بوعيه ، وتأثر به ، وينادينا بحاله المختاطبي ، فنلبي نداه ..

وكما اتسع تطورنا هذا لمزيد من الوعي ، ومن الفكر ، ومن الثقافة - كثرت نقاط الالتقاء والتجمع بين الجماعات الإنسانية كلها . ويتم التجمع بين جماعات قوية واعية ناهضة ، حين تكون جميعاً قد مرت بتجربة الاختيار ، وكوّنت لنفسها تلك الشخصية الحرة المستقلة النامية التي يثمرها الاختيار .

وهكذا يتجلى ظهور الإنسان فينا على نسق باهر عظيم

x x

وكما نادينا في الفصل السالف بمبدأ « الثقافة للكافة » ننادي هنا بمبدأ « الاختيار للكافة » ..

لقد قلنا : إن عصر « الثقافة للصفوة » قد انتهى .. أو بدأ
ينتهي ، وعالمنا أن نُجِّلْ بنهايته ..

ونقول : إن عصر « الاختيار للصفوة » يواجه نفس المصير ،
وينبئ أن يواجهه .

والكناس ، كالفلاسوف في الميزان ..

ولا ينبئ أن تعطى عبقرية حق الاختيار ، ثم نحرم أباه الذي كان
خطاباً ، أو نجاراً ، أو من غمار الناس : . فهذا الأب النمرود ، هو الذي
حمل في صُلبه ولده المبقرى أو العظيم ، وهو الذي أوصل إليه ميراث
المبقرية ، ومنحه وجوده .

ثم إن الاختيار ، ليس عملاً من أعمال الترف والصِّلف حتى يكون
وقفاً على الخاصة . بل إن له وظيفة أسمى وأجلّ ، ووظيفته هذه تجمل
أمر تعميمه واجباً مفروضاً . فوظيفة الاختيار الحقّة هي :

أولاً : ترشيد الوعي الإنسانى .

ثانياً : الكشف عن الإرادة الكلية للجماعة الإنسانية .

لنفرض أننا دعونا سكان الكرة الأرضية جميعاً للاشتراك في
استفتاء حر ، تبين عن طريقه رأيهم في الحرب وفي السلام ..
ولنفرض أنهم جميعاً ، أو معظمهم رَجَبُوا بالحرب ، ورأوا فيها علاجاً
لآلام الحرب الباردة ، وحرب الأعصاب القائمة ..

إن هذا الرأي — لأريب — فاجعة وبيلة . لكن الكشف عنه
عمل عظيم . . . ١١

فهذا الكشف دلنا على « إرادة كلية » للناس لم يكونوا يعلمونها . .
وهذه « الإرادة الكلية » تشكل خطراً داهياً . . . وهى وإن تك يوماً
فى حالة كون ، فإنها فى يوم آخر ستملن عن نفسها لا محالة . .

وإذن فمن الخير العظيم أن نعرفها ، ونكتشفها ونتبع مآلاتها ،
ونلوى زمامها . .

والأرادة الكلية حين تتكشف وتبدى ، نأمن عثارها مهما
يكن الخطأ الكامن فيها ، لأن وُجوه الرأى السديد سرعان ما تجتد
نفسها لتقويم المِوَج ، وإحكام الاتِّجاه .

والوعى الإنسانى لا يفقد أبداً ، مَنْ يضع أُصبعه على مصباح
الحقيقة فيضيئه له ، حتى لو يكون طقل . « هانس أندرسون » الذى
كشف عُرى الامبراطور ، وفضح « نَسَاجِيْ صاحب الجلالة »
وردّ للجُمُوع الجبانة المخدوعة شجاعتهما وعقلها ، حين صاح بينها :
« إن الامبراطور عُريان » . . فإذا الناس يُقبل بعضهم على بعض
يتهايمسون ، ثم يتصايحون : « أجل . . إنه عُريان . . إنه لعُريان » . ١١

وإذا كان تَيِّين الإرادة الكلية للناس حَتْمياً ، حتى حين تمثل هذه
الإرادة خطلاً وخطأً ، فكم تكون حتميته ، والإرادة الكلية خير عميم . ١٢

أجل ، إن الارادة الكلية للبشر لا تجتمع على ضلالة ، لأنها تجماع ما في البشرية من ذكاء ، ووعي ، ورغبة في التفوق ، وإصرار على النهوض . . . ونحن في الحقيقة لسنا بكثير حاجة إلى تبين وجهتها ومقصدتها ، فوجهتها معروفة بالبدية وهي المجاوزة الدأعة ، وتخطي الحسَن إلى الأحسن باستمرار . .

لكن ما نحن بحاجة إلى تبينه دائماً ، هو الطريق ، والوسائل التي تتوسل بها هذه الارادة لبلوغ وجهتها ، وتحقيق غرضها . فالوسيلة مرنة ومتغيرة . ولكل عصر وسائله المناسبة ، ونُظمه ومناهجه ، ومؤسَّساته الملائمة . .

وهنا المجال الحيوي الفسيح للاختيار .

وهنا كذلك المجال الحقيقي لإرادة الإنسان .

x x

كان القديس « أوغسطين » حين يُسأل عن سر الزمان يجيب :
« إني أعرف الزمان ، إذا لم يسألني عنه أحد . . . »
« أما حين أحاول تفسيره للساأل فأني أجهله . . . »

ولقد بقي الاختيار كشكلة فلسفية ؛ يتخذ في الأذهان صورة كصورة
الزمان في ذهن أوغسطين . .

حدث هذا ، ولا يزال يحدث عندما تناقش « الاختيار » من
حيث سلته بالقضاء والقدر . .

أما حين نطرحه - كما قلنا من قبل - باعتباره ضرورة إنسانية
عليها أن تحقق نفسها في العالم الخارجى ، وباعتباره حقيقة تاريخية
تبدى سافرة واضحة في الحركة الإنسانية كلها ، صغيرها وكبيرها ؛
فحينئذ يكون موقفنا الفسكى منه واضحا ، ولا نجمل من حقيقته ،
ولامن كونه شيئا . .

إن قصة الحياة الإنسانية كلها ، هى قصة الاختيار الإنسانى ،
في حريته الخالقة . .

وبعد...

. الآن يبلغ الكتاب تمامه ، وتُشرف هذه الصفحات على غايتها .

فهل فرغ حديني عن الإنسان ؟ ؟

إذا كان تصوُّري لعظمته ، ولستقبله ، سيُصرُّ على أن ينقل
نفسه ، ويُعبِّر عنها في صحائف مكتوبة ، فما أكثر ما أحتاج — إذن —
إلى كُتب تروى هذا التصور الغدق الفيض ..

على أني سعيد بنعمة الله عليّ في هذه المُجالة التي ضمنتها علاقتي
بالإنسان ..

ولسوف أظل أذكر لهذا الذي أنبته الله من الأرض نباتاً ،
ثم سوّده عليها ، واستخافه فيها .. سوف أظلّ أذكر له كدحه ،
وشقاه ، وأخطائه ، أكثر مما أذكر له فوزه ، ومباهجه ، وذكاه .

أي أنه من حيث يستأثم كثيرون ، وينفضون عن الإنسان في
جزع اليم ، سأشر أنا شرع تفاؤلي ، وأقبل على الإنسان في ثقة
سابقة ، وفي ولاء كريم !! ..

ذلك أني — فيما أحسب — قد عرفت ما هو .. وأدركت من
فداحة عبثه ، وثقل حمّله ، وحسامة مسماه ، وعظمة دوره ما منحني
اليقين المدب ببطل خطابه ، وجلال مراهبه ، ويمن أباه ، وتجد زمانه .
وأحسب أن هذا واحدنا جيما نحو الإنسان ، أفراداً ، وجماعات ،
وأما ..

ينبغي أن نتق بالإنسان ، ونطمئن إلى مصيره ، وينبغي أن يكون
جهادنا - دائماً - مرتبطاً بجهاده ومتمماً له . وأن نتحرى مشيئته
ونعمل وفقها .

لقد قرأنا كثيراً عن تاريخ الإنسان . ووقفنا عنده طويلاً
أفينبغي لهذه الوقفة أن تدوم . ؟ ؟
كلا ، وإنما واجبنا أن نتقدم لنسهم في بناء هذا التاريخ بعزيمة
أقوى ، وثقة أتم ، وولاء أكثر .

وذلك يقتضى أن بأخذ كل مكانه بين الصفوف الراحفة ..
ويدفع كل ، كيانه الصغير داخل الكيان الكبير ..
علينا أن ننقل الإنسان إلى حياتنا ، ونملأها برؤاه وبإصراره ..
وعلينا أن نعمل من أجل مستقبله ومصيره ، وكأننا نبصر هذا
المستقبل وذاك المصير .
وبقدر ما تحمل عزائمنا من تفاؤل ، سيكون جمال كفاحنا ،
وستكون عظمته .

لنتق تماماً ، أن هذه الأرض لن تشهد يوماً ما ، جنازة الإنسان ..
فالإنسان الذي قضى ملايين السنين في أحضان التطور لكي يبلغ
الرشد الذي يبدأ منه رحلته الجادة الصاعدة ، لن يقضى نفيه حين

تدق ساعة رُشده وتبدأ بشارٍ عصوره .. ولقد دقت الساعة ،
وأهلت البشار ..

ولو لم يبق من البشر سوى ألف أو مائة ، فسيممل الإنسان داخل
هذا الألف ، أو هذه المائة ..

وإذا لم يبق من نوعه إلا عشرة ، فسيممل مع هذه العشرة ..
وإذا لم يبق إلا واحد ، فسيبدأ بناء عالمه الجديد بهذا الواحد ..
وإذا فنى هذا الواحد أيضاً ، فسيكمن الإنسان داخل « أميبا »
يهرب بها من القناء ، ويبحث من داخلها نفسه مرة أخرى ، وينشر
وجوده وحياته ورسالته من جديد .

لنؤمن بهذا جيداً ..

ولنتق بأن خليفة الله هذا ، سيبلغ من أمره ما يريد .

يَنْبَغِي
جِهَادَنَا -
وَنَعْمَلُ وَفَقْرًا

لَقَدْ فَرَّ
أَفِينِي
كَلَّا
أَقْوَى ، وَءَ

وَذَلِكَ

وَيَدْرَأُ

عَلَيْنَا

وَمَا

طابع وزارة الثقافة والفنون
مكتبة مصرية - مكتبة جامعة القاهرة

المؤلف

- ١ - من هنا . . تبدأ
- ٢ - مواطنون . . لا رعاء
- ٣ - الديمقراطية . . أبدا
- ٤ - الذين في خدمة الشعب
- ٥ - هذا . . أو الطوفان
- ٦ - لكي لانحنوا في البحر
- ٧ - لله والحرية (جزء اول)
- ٨ - لله والحرية (جزء ثان)
- ٩ - مما على الطريق - محمد والسيح

يطلب في المراق من :

مكتبه المتنبي ببغداد

قرضا مصر	١٢٠	} الثمن
سوريا	١٢٠	
لبنان	١٢٠	

دار الكتب العربى بالقاهرة

To: www.al-mostafa.com